أ.د مولود عويمر

الرِّحْلَة الصِّينِيَّة

عَالِمان جزائِريَّانْ في بلادِ الصِّينْ

مجلة تجديد ورسالة
الأصالة

شركة الأصالة للنشر/ الجزائر

الرحلة الصينية

عاملان جزائريان في بلاد الصين

الرحلة الصينية

عاملان جزائريان في بلاد الصين

د.مولود عويمر

الأصالة للنشر والتوزيع

شركة الأصالة للنشر/الجزائر

© شركة الأصالة 2018

ISBN: 978-9931-413-47-9

الإيداع القانوني: أوت 2018

شركة الأصالة للنشر/ الجزائر

العنوان: حي الصنوبر البحري رقم 58 المحمدية، الجزائر العاصمة

الهاتف/الفاكس: 06 2196 021

الجوال: 0669004744

البريد الإلكتروني: elassalacenter@gmail.com

الموقع الإلكتروني: www.assala-dz.net

مقدمة:

لم تكن الصين بعيدة عن اهتمامات رجال الفكر والإصلاح في العالم العربي، فهذا الأمير شكيب أرسلان كتب سلسلة من المقالات في مجلة "المقتطف" حول مستقبل الصين، وهذه مجلة "المنار" لصاحبها الشيخ محمد رشيد رضا تنشر كذلك مقالات وأخبارا عن هذه البلاد العريقة البعيدة.

وخصصت مجلة "المشرق" للويس شيخو و"الهلال" لجرجي زيدان، و"المجلة الجديدة" لسلامة موسى مقالات عديدة لتاريخ الصين وثقافتها وعلاقتها بالعالم العربي.

كما نشرت جريدة "المنتقد" ومجلة "الشهاب" للشيخ عبد الحميد بن باديس أخبارا عن الصين وتابعت تطوّر صراعها مع اليابان والدول الغربية، واهتمت بجهودها للنهوض الحضاري والتحاقها بركب التقدم.

ولم يتوقف اهتمام العلماء العرب والمسلمين بالصين عند الكتابة عن تاريخهم وحاضرهم، فقد قام عدد منهم برحلات إلى الصين وزاروا مدنها والتقوا بأهلها خاصة المسلمين منهم، وساحوا في طبيعتها الخلابة وعادوا معجبين أو غير معجبين بما شاهدته أعينهم وسمعته أذانهم واستخلصته بصائرهم.

وكان من بين هؤلاء العلماء الجزائريان الشيخان: علي مرحوم ومحمد الصالح رمضان. وقبل الحديث عن رحلتهما ودراسة مضامينها أريد أن أعرض هنا بعض المعلومات ستساعدنا لاحقا في فهم خلفيات تلك الرحلة وأهميتها.

البعثات الطلابية الصينية إلى مصر:

أما الصينيون فإنهم قصدوا مصر للدراسة في جامع الأزهر، واستقبلت هذه المؤسسة الدينية والعلمية العريقة 6 بعثات طلابية من الصين بين 1931م و1938م، وتضم 30 طالبا. وكان يترأس جمعيتهم: محمد إبراهيم شاه كوجين؛ الذي لم يكتف بالتحصيل العلمي إذ كان له أيضا نشاط سياسي وإعلامي في مصر. وقد أجرت معه مجلة "المعرفة" المصرية حوارا شاملا حول المسلمين في الصين، وكذلك رأيه في مستقبل الصين في عالم مقبل على الحرب خاصة تهديدات جارتها اليابان[1].

كما تجدر الإشارة إلى أنه نشر مع نور محمد دابوسين رئيس الجمعية الإسلامية الصينية، كتابا عنوانه: "رسالة من مسلمي الصين إلى مسلمي العالم. حقائق عن الحرب الصينية اليابانية القائمة"؛ الذي ترجمه إلى اللغة العربية أبو بكر الصيني.

والكتاب كان يرمي إلى تعبئة الرأي العام العربي والإسلامي ضد محاولات الغزو اليابانية، وإقناعه بكفاح الصينيين والدعوة إلى الاهتمام بالإسلام والمسلمين في الصين وكذلك جمع الأموال لصالح كفاحهم الوطني.

وقد نشرت مجلة "الرسالة" مقدمة هذا الكتاب مرفقة بتعليقات ودعوة صريحة إلى دعم كفاح المسلمين الصينيين لتحرير أرضهم تحت

(1) بركان الشرق الأقصى كما يصوّره أحد الصينيين. المعرفة، نوفمبر 1932م، مج 2، ج 11، ص 1329-1330.

قيادة الجنرال عمر باي تسون هسي، وإرسال المعونات المالية عن طريق جمعية الهلال الأحمر[1].

وأما أشهر طلبتها فكان محمد مكين الذي كان له نشاط ثقافي ووطني معروف سواء بكتاباته في الصحف والمجلات المصرية[2]، أو في مشاركاته في أعمال جماعة التعارف الإسلامي التي أسسها محب الدين الخطيب[3]؛ التي قدمها فيها محاضرات عن الصين ثم جمعها في كتاب أصدرته هذه الجماعة عنوانه: "نظرة جامعة إلى تاريخ الإسلام في الصين وأحوال المسلمين فيه". وترجم أيضا كتاب "الحوار" لكونفوشيوس في عام 1354هـ، ونشره في المطبعة السلفية بالقاهرة.

وساهم في عام 1937م مع باقي زملائه في البعثة في تأسيس الجمعية الصينية لإغاثة منكوبي الحرب، وكان دورها الترويج للمقاومة الصينية للجيش الياباني، وتحصيل الدعم المالي من أجل مساندة كفاح الشعب الصيني.

وقد أكمل محمد مكين دراسته في جامع الأزهر والمدرسة العليا للمعلمين في عام 1939م، ثم عاد إلى الصين ليدرّس الأدب العربي في المدارس الإسلامية في شنغهاي ثم يلتحق بجامعة بكين في عام 1945م؛

(1) الرسالة، العدد 255، 23 ماي 1938م، ص 870-872.

(2) محمد مكين الصيني. على سور جينان (ترجمة). الرسالة، العدد 217، 30 أوت 1937م، ص 1432-1434.

(3) عن حياة الأستاذ محب الدين الخطيب (1886-1969م) ومجلته "الفتح"، أنظر كتابي: العلاقات الثقافية بين الجزائر والمشرق العربي في القرن العشرين. دار الهدى، الجزائر، 2016م، ص 153-159.

التي أسس فيها مدرسة رائدة في الاستعراب. ويؤلف كتبا في التراث العربي، ويترجم القرآن الكريم إلى اللغة الصينية. وقد مات الأستاذ محمد مكين في 16 أوت 1978م.

وقد ساهم طلبة صينيون آخرون (بدر الدين الصيني[1]، وعبد الله ما جي كو[2]، ع أ[3]، وإبراهيم ت.ج.م[4]) في تحرير مقالات في المجلات والصحف المصرية حول الأدب الصيني، وعرّفوا العرب بمجموعة من القصص الصينية التي قاموا بترجمتها من لغتهم إلى اللغة العربية. وربما كانت هذه الحركة الثقافية للطلبة الصينيين هي التي دفعت الكتاب المصريين والعرب إلى الاهتمام بالتراث الصيني، وواقعه السياسي ومتابعة أخباره[5].

(1) بدر الدين الصيني. علاقة الدين بين العرب والصين. الرسالة، العدد 237، 17 يناير 1938م، ص 101-103.

(2) عبد الله ما جي كو. من القصص الصيني. الدمع. الرسالة، العدد 651، 24 ديسمبر 1945م، ص 1412-1414.

(3) ع. أ. الأميرة الصينية وثوبها الحريري. الرسالة، العدد 333، 20 نوفمبر 1939م، ص 2166- 2169.

(4) إبراهيم ت.ج.م. زئير الصين. الرواية، العدد 55، ماي 1939م، ص 415-421.

(5) يوسف عز الدين. الإسلام في الصين. حديث لزعيم الصين عثمان وو. الثقافة (القاهرة)، ص 532-533؛ عباس محمود العقاد. حكمة الصين. الرسالة، العدد 525، 26 يوليو 1943م، ص 581-583؛ إبراهيم عبد القادر المازني. على طريقة الصين أو طريقة أبي دلامة. الرسالة، العدد 400، 3 مارس 1941م،ص 250-251.

ولقد لعب قدماء الطلبة الأزهريين أمثال: الأستاذ محمد مكين والأستاذ عبد الرحمان ناجون، والأستاذ رضوان ليولين روي وغيرهم دورا بارزا في ترسيخ دعائم الاستعراب في الصين، وساهموا في تعزيز العلاقات الثقافية بين الصين والعالم العربي[1].

علماء الصين في الجزائر:

لقد دأبت وزارة الشؤون الدينية الجزائرية منذ عام 1974م على تنظيم ملتقى دولي سنوي للفكر الإسلامي، وحرصت دائما على دعوة العلماء والمفكرين المسلمين من كل أنحاء العالم.

وهكذا شارك العديد من المحاضرين من الدول العربية والإسلامية والعالم الغربي. وجدير بالذكر هنا أن ألفت الانتباه بشكل خاص إلى مشاركة مبكرة لعلماء من القارة الآسيوية كـ: إندونيسيا وتركيا، وإيران، والهند، وباكستان، ماليزيا، والفيليبين، وبنغلاديش، والاتحاد السوفياتي واليابان.

أما الصين فقد تأخرت مشاركتها إلى عام 1979م، وكان أول عالم صيني شارك في أعمال ملتقيات الفكر الإسلامي هو: الأستاذ كمال الدين باي شيوبي، نائب رئيس الجمعية الإسلامية الصينية، ومدير كلية التاريخ بجامعة بكين. وقد قدم محاضرة في الملتقى الثالث عشر المنعقد بتمنراست

(1) رضوان ليولين روي. اللغة العربية في الصين قديما وحديثا. مجلة المجمع العلمي العربي، أكتوبر 1987م، ص 725-726.

أيام 30 أوت و8 سبتمبر 1979م، عنوانها: "مساهمة المسلمين الصينيين في التاريخ"[1].

واستمر العلماء الصينيون -وخاصة أعضاء الجمعية الإسلامية الصينية- في المشاركة في هذه التظاهرة العلمية السنوية، على النحو التالي:

- الأستاذ سليمان تشانغ بيندو: التعليم الديني للمسلمين الصينيين (1980م).
- الأستاذ عبد الرحمان ناجون: القرآن وانتشاره في الصين (1981م).
- الأستاذ إبراهيم مار ينبغ: المسلمون الصينيون والحضارة المعاصرة (1984م)[2].
- الأستاذ محمد صفاء الدين بن عبد الله: أضواء على الثقافة الإسلامية التي ينهل منها المسلمون الصينيون (1985م).

رحلات جزائرية سابقة إلى بلاد الصين:

لم تكن هذه الرحلة أول الرحلات الجزائرية إلى بلاد الصين، فقد سبقتها زيارات لعدد من العلماء الجزائريين (أحمد توفيق المدني، محمد الغسيري، عباس بن الشيخ الحسين، مالك بن نبي، عبد العزيز خالدي...) خاصة خلال الثورة التحريرية إذ وقفت الصين مساندة لكفاح الجزائريين.

(1) كمال الدين باي شيوبي. مساهمة المسلمين الصينيين في التاريخ. محاضرات الملتقى الثالث عشر للفكر الإسلامي. كتاب الأصالة، منشورات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ج 3، ص 11-27.

(2) إبراهيم مار ينبغ: المسلمون الصينيون والحضارة المعاصرة. العصر، العدد 110، 6 سبتمبر 1984م، ص 10-11.

كما استقبلت مرات عديدة قادتها السياسيين والعسكريين (كريم بلقاسم، عبد الحفيظ بوالصوف، لخضر بن طوبال، بن يوسف بن خدة، سعد دحلب، فرحات عباس، محمود الشريف، عمر أوصديق.. إلخ). وقد تابعت جريدة "المجاهد" هذه الزيارات المتعددة وقامت بتغطية أعمالها.

ويبقى أن أشير هنا إلى أن الأستاذ أحمد توفيق المدني كتب عن رحلته إلى الصين بين 24 سبتمبر و10 أكتوبر 1959م. وقد رافقه بن يوسف بن خدة وزير الشؤون الاجتماعية -آنذاك- لتمثيل الحكومة الجزائرية المؤقتة، في احتفالات الذكرى العاشرة لتأسيس الجمهورية الصينية الشعبية. وقد عنوّن رحلته بـ: "في بلاد العمالقة، الصين الشعبية"[1].

جريدة "العصر" تنشر الرحلة:

هذه الرحلة إلى الصين قام بها وفد من وزارة الشؤون الدينية الجزائرية بدعوة من الجمعية الإسلامية الصينية. وكان يضم ثلاثة أعضاء وهم: الشيخ علي مرحوم (رئيس الوفد)، والشيخ محمد الصالح رمضان، والأستاذ حمزة يدوغي.

ودامت الرحلة 13 يوما، كان الذهاب يوم 21 محرم 1403هـ/1982/11/7م، أما العودة فكانت يوم و5 صفر1403هـ الموافقة لـ: 1982/11/20م. وتوقفا يومين في باريس في طريق الذهاب والعودة.

(1) أحمد توفيق المدني. حياة كفاح. مذكرات. عالم المعرفة، 2010م، ج 3،ص 666-673.

نشرت جريدة "العصر" أخبار الرحلة ومشاهد أصحابها وانطباعاتهما. والعصر يصدرها كل يوم الاثنين المجلس الإسلامي الأعلى. والجريدة تتضمن 16 صفحة تعنى بقضايا الفكر الإسلامي.

وصدرت للمرة الأولى في 16 أفريل 1981م في عهد رئاسة الشيخ أحمد حماني للمجلس وباقتراح من وزير الشؤون الدينية آنذاك الأستاذ عبد الرحمان شيبان. وعرفت هذه الجريدة تذبذبا في الصدور لكنها قاومت كل المعوّقات، واستمرت في الظهور عدة سنوات إلا أن توقفت نهائيا في عام 1991م[1].

وقد فتحت الجريدة صفحاتها للأقلام الجزائرية فكتب فيها: الشيخ أحمد حماني، والشيخ محمد الأكحل شرفا، والأستاذ محمد الصالح الصديق، والأستاذ محمد الصالح رمضان، والشيخ علي مرحوم... إلخ.

كما نشرت الجريدة مقالات لعلماء معروفين في العالم العربي والإسلامي كالشيخ محمد الغزالي والشيخ يوسف القرضاوي، وأبو الحسن الندوي، والأستاذ محمد مبارك، والأستاذ أنور الجندي... إلخ.

نشر الشيخ علي مرحوم نص رحلته في حلقتين في صفحة شؤون المسلمين في العالم، ظهرت الحلقة الأولى في العدد 78، الصادر في 24 ربيع الثاني 1403 هـ/7 فبراير 1983م، موزعة على صفحات 11-13.

أما الحلقة الثانية فإنها ظهرت في العدد 79، الصادر في 1جمادى الأولى 1403 هـ/14 فبراير 1983م، وموزعة على صفحات 12-14. وكان عنوانها الرئيسي: "انطباعات عن الإسلام والمسلمين في الصين الشعبية"،

(1) كان آخر عدد اطلعت عليه صادرا في يوم 28 أكتوبر 1991م.

بينما أضافت هيئة التحرير في أعلى زاوية الصفحة عنوان فرعي: "من مذكرة رحلة إلى بلاد الصين".

أما الشيخ محمد الصالح رمضان فإنه نشر نصه في أربعة حلقات، فكانت الحلقتان الأولى والثانية صدرت في التاريخين السابقين، أما الحلقة الثالثة فإنها صدرت في العدد 80 بتاريخ جمادى الأولى 1403هـ/ 28 فبراير 1983م، وفي صفحة 14، بينما ظهرت الحلقة الرابعة في 6 جمادى الثانية 1403هـ/21 مارس 1983م، في صفحة 12. وكان عنوانها الرئيسي: "عائد من الصين". لكن حجم الرحلتين كان تقريبا متساويا.

وتضمنت الرحلة خريطة مكررة للصين و3 صورا، تتعلق الصورة الأولى بوقفة أمام المسجد الجامع بمدينة شيان وبعد أداء صلاة العصر، ويظهر فيه الوفد الجزائري مع الإمام وبعض أعضاء الجمعية الإسلامية الصينية والمصلين.

والصورة الثانية قراءة الفاتحة والدعاء بعد صلاة العصر داخل الجامع، والصورة الثالثة استقبال الوفد الجزائري من طرف علماء الدين والسياسيين الصينيين وموظفين من سفارة الجزائر ببكين.

تجارب في أدب الرحلة:

ولابد أن أذكر هنا أن الشيخ رمضان والشيخ مرحوم كانت لكل واحد منهما تجارب في أدب الرحلة، فلم تكن هذه هي المرة الأولى التي يكتبان فيها مقالات متسلسلة في هذا الموضوع، فقد كان علي مرحوم متجوّلا لجريدة "البصائر" في نهاية الثلاثينيات، فزار مناطق عديدة في الجزائر وكتب عنها انطباعاته وشواهده في هذه الجريدة الإصلاحية.

أما الشيخ محمد الصالح رمضان فإنه قد كتب انطباعاته عن رحلته التي قام بها إلى فرصوفيا عاصمة بولونيا في عام 1955م، ونشر نصه في جريدة "الشعب" في 28 حلقة في الفترة الممتدة بين 1 أوت و7 سبتمبر 1987م، ثم نشر مخطوطه كاملا تحت عنوان: "سوانح وارتسامات عابر سبيل".

مشاهد وانطباعات الشيخ علي مرحوم:

خصص الشيخ علي مرحوم الجزء الأول من رحلته لعرض تاريخ وصول الإسلام إلى الصين وتفاعل الصينيين مع تعاليمه عبر العصور، والعلاقات المسلمين الصينيين مع غيرهم من المسلمين في العالم العربي، والتبادل التجاري والثقافي بينهم في العصور القديمة والحديثة، وتحدث عن أهم الجمعيات الإسلامية في الصين، والتركيبة العرقية للمسلمين الصينيين وتوزيعهم الجغرافي.

وعاد في القسم الثاني إلى وصف الرحلة كـ: زيارة المدن والمساجد والمصانع والاتصال ببعض الشخصيات الدينية والعلمية والإدارية، وذكر مراسيم التوديع بمطار بكين.

وختم نصه بخلاصة من الانطباعات المركزة حول طبائع الصينيين وعجائب دولتهم. وعبر كذلك عن إعجابه بالشعب الصيني المهذب والمنضبط والفعال البناء، وانتشار الأمن والسلم والعدالة الاجتماعية.

وهذا الشعور نجده أيضا عند الشيخ محمد الصالح رمضان الذي لخص كل ذلك في هذه الفقرة: «فقد رأينا الشعب الصيني العظيم دؤوبًا على العمل يبني ويشيد في صمت بلا جلبة ولا ضوضاء، وهو المعروف بالجد والنظام والانضباط، يعمل بكل ثقة وأمل، لا يكل ولا يمّل، وحبّه

للعمل وإتقانه له يفوق كل اعتبار، والمرأة تشارك الرجل في كل شيء حتّى في الأعمال الكبيرة الشاقة، لا فرق بينها وبينه، فهو شعب جدير بالحبّ والتقدير والاحترام».

وقد غلب الاستطراد أيضا على نص الشيخ مرحوم، فحرص هو أيضا على تقديم معلومات دقيقة ومفصلة عن تاريخ الصين وجغرافيتها وتوزيع سكانها وطبائعهم، وعاداتهم ونشاطاتهم مستعينا بأوثق المصادر والمراجع ككتاب: "الإسلام الصراط المستقيم" لكاتب صيني، وكتاب: "حاضر العالم الإسلامي" الذي أشرت إليه من قبل، ووثائق المؤتمر الإسلامي الصيني الرابع، وتقرير رابطة العالم الإسلامي، بالإضافة إلى المعلومات التي استخلصها من الشخصيات الصينية التي التقى بها وترجمها له دليلهم الصيني الوفي والأمين الأستاذ لقمان خريج دار العلوم بالقاهرة.

غير أنه كان أحيانا ناقدا لما قرأه أو سمعه، فقد تساءل عن عدد المسلمين في الصين بالضبط بعدما وجد آراء مختلفة وأقوال متباينة في هذا الموضوع، ذلك بأن كل الكتب التي قرأها عن الصين والأقوال التي سمعها في رحلته تعدهم 50 مليونا، بينما ذكرت الوثائق الرسمية التي وزعت عليهم ذكرت 13 ملايين فقط.

وقال في هذا الشأن: «وحينما نقارن بين العددين لابد أن نحتار من هذا الفرق الكبير في العدد بين الماضي والحاضر؟ ولسنا ندري -ولا المنجم يدري- كيف تقلص عدد المسلمين في أقل من نصف قرن من الزمن، بنحو أربعة أخماس ما كانوا عليه منذ خمسين سنة؟ مع أن

المتعارف في حياة الشعوب البشرية أن يزداد نموها مع مرور الأعوام لا أن يتضاءل عددها كما نرى في واقع الحال؟»

مشاهد وانطباعات الشيخ محمد الصالح رمضان:

قدم الشيخ رمضان في الحلقة الأولى بعض تفاصيل انطلاق الرحلة من الجزائر مرورا بمطار فرانكفورت (ألمانيا) ومطار نيو دلهي (الهند). أما العودة فكانت عن طريق كراتشي وباريس. فاستغرقت الرحلة 16 ساعة ذهابا و10 ساعات إيابا. وتحدث الشيخ رمضان عن حسن الاستقبال وكرم الضيافة، وزيارة المعالم الأثرية والمعمل والمصانع والمزارع والتعاونيات لكنه لم يفصل في ذلك.

بل أسهب في عرض نظرة عن جغرافية الصين، وحاضر هذه البلاد. وتطرق في الحلقة الثانية إلى دخول الإسلام إلى الصين وتطوّر علاقاتها مع العالم العربي والإسلامي. عاد في الحلقة الثالثة إلى وصف الرحلة وعرض مشاهده وانطباعاته. وفي الحلقة الرابعة رجع إلى التاريخ القديم للصين وأسهب في ذكر إسهامات الصينيين في الحضارة الإنسانية باكتشافاتها واختراعاتها المختلفة.

وأشار إلى زيارة مسجد باريس في طريق العودة واستغل الفرصة للتنبيه إلى حالة بناياته التي تحتاج إلى الصيانة والترميم، ونقد ركوده الفكري وجموده الثقافي.

وهكذا نجد الشيخ رمضان اختصر كثيرا حديثه عن مشاهداته وانطباعاته، بينما فصّل القول في تاريخ وجغرافية الصين معتمدا على مصادر ومراجع عديدة ككتاب: "تحفة النظار في عجائب الأسفار" المعروف برحلة ابن بطوطة، و"حاضر العالم الإسلامي" للكاتب الأمريكي

لوثروب ستودارد، والذي علّق عليه الأمير شكيب أرسلان، و"دائرة معارف القرن العشرين" لمحمد فريد وجدي، و"الموسوعة العربية اللبنانية"، و"الدعوة إلى الإسلام" للمستشرق البريطاني توماس أرنولد.

مسارات الرحلة:

وإذا أردنا أن نلخص هذه الرحلة كما جاءت في النصين، فإننا نرتبها كالآتي:

- الاستقبال في مطار بكين من طرف الجمعية الإسلامية الصينية.
- زيارة مدينة شيان والمكوث فيها يومين، والالتقاء بأعضاء الجمعية الإسلامية وأداء صلاة العصر في مسجدها الكبير وزيارة الآثار الإسلامية.
- السفر إلى مدينة شنغاي والإقامة فيها 3 أيام والاطلاع على مصانعها ومراكز تجارتها والسياحة في مناطقها الخلابة.
- حضور مأدبة عشاء نظمها على شرفهم مسؤول شؤون الأديان بمدينة شنغاي.
- العودة إلى بكين ثم زيارة جدار الصين العظيم.
- أداء صلاة الجمعة في مسجد بكين.
- إلقاء كلمة من طرف رئيس الوفد الشيخ علي مرحوم.
- إلقاء كلمة في إذاعة بكين العربية الدولية حول الزيارة من طرف رئيس الوفد.
- حوار مع صحافيين من إذاعة بكين العربية الدولية.
- حضور مأدبة غذاء نظمها على شرفهم سفير الجزائر ببكين السيد عبد الكريم غريب.

- مغادرة الصين بحضور أعضاء من الجمعية الإسلامية الصينية وموظفين ساميين من السفارة الجزائريين.

الخلاصة:

وإذا كنا لا نشك أن الشيخ مرحوم كتب مشاهداته، فإننا نشك في أن الشيخ محمد الصالح قد نشر كل ما رآه وكتبه في مذكرته، خاصة وأن الشيخ مرحوم ذكر في نصه ما يجعلني مصرا على رأيي، فهو يقول: «في مدى ثلاثة أيام متوالية وقد أخذ الصديق محمد الصالح رمضان على عاتقه أن يسجل لقراء "العصر" هذه المشاهد بما تستحقه من التحليل والتفصيل وقد كان أثناء تنقلنا بين تلك المعالم والمآثر... يسأل عن كل صغيرة وكبيرة... ولا تخلو تعاليقه على ما يرى ويسمع... من المبالغة -أحيانًا- في التدقيق والتحقيق».

لقد وصف كل من الشيخ محمد الصالح رمضان والشيخ على مرحوم الرحلة، وعرفّا القارئ بتاريخ الصين وحاضره، وتقاليد الصينيين ومعتقداتهم ونظامهم المحكم، وإقبالهم على العمل ومواجهة التحديات من أجل التقدم والتطوّر. كذلك كشفا الأضواء عن حياة المسلمين في هذه البلاد التي عاشت قرونا في السلم والاستقرار باستثناء فترة الثورة الثقافية (1966-1976م)؛ التي عانوا خلالها كل أشكال القهر وذاقوا كل أنواع الاضطهاد.

وحرص الشيخان على إبراز إسهامات المسلمين الصينيين في الدفاع عن وطنهم في أيام العدوان والحرب، ومشاركتهم الفعالة في بنائه والارتقاء به في سُلم التقدم في أيام السِّلم والاستقرار.

كذلك عبّر كل واحد منهما عن انطباعاته تجاه ما شاهدته عيناه وسمعته أذناه. فكان الرجلان معجبين بتطوّر الصين وانضباط الصينيين وتعفف النساء الصينيات وفعالياتهن، ونقاء تديّن مسلمي الصين وحبهم العميق للغة العربية، وتضامنهم مع العرب في الدفاع عن قضاياهم العادلة.

ومن المفيد أن أنقل هنا ما ذكر في هذه الرحلة عن نشاط الإذاعة الصينية الدولية؛ التي تبث برنامجا باللغة العربية في اتجاه العالم العربي لمدة ثلاث ساعات يوميًا، خلال خمسة أيام في الأسبوع.

ولعل من أهم ما كان يصبو إليه الشيخان من وراء نشر هذه الرحلة، هو دفع العرب والمسلمين إلى الاهتمام بإخوانهم المسلمين في الصين اللذين يجهلون كل شيء عنهم.

واستشهد على ذلك بقول الشيخ علي مرحوم: «إن الوطن الصيني -قديمًا حديثًا- يعتبر عالما مستقلاً بنفسه، ودراسة تاريخه في مختلف أطوار حياته له أهمية قصوى من الوجهة العلمية والإنسانية، ولكن إلى الآن لا نجد بين أيدينا المصادر أو المراجع التاريخية الموثوق بها، عن حياة الإسلام والمسلمين، التي تكاد تدخل في عالم النسيان، وبعث هذه الحياة من جديد يتطلب كتابة عدة مجلدات».

حقا إننا اليوم بحاجة ماسة إلى دراسة الحضارة الصينية ومعرفة تراثها وتاريخها، واكتشاف عقليتها خاصة وأن الصين صارت دولة عظمى حاضرة بقوة في كل أنحاء العالم، برجالها وكذلك بمنتجاتها التي أصبحت تغزو الأسواق وتساهم رويدا رويدا في تغيير الذّهنيات والأذواق.

التعريف بالشيخ علي مرحوم:

مسار في سطور:

ولد علي مرحوم في قرية بني مسلم بالميلية يوم 14 مارس 1913م. تلقى تعليمه الأول في ميلة. وعندما بلغ العشرين عاما انتقل إلى بقسنطينة لينضم إلى جامع الأخضر ويدرس على الشيخ عبد الحميد بن باديس. وعاصر نخبة من الطلبة الذين سيكون لهم دورا كبيرا فيما بعد في الحركة الإصلاحية أمثال: الفضيل الورتلاني، أحمد حماني، ومحمد الصالح رمضان، ومحمد الغسيري... إلخ.

وكان علي مرحوم طالبا نجيبا، فهذا زميله في الدراسة أحمد حماني يصفه بالتميّز والتفوّق على كثير من أقرانه، فكانت نصوصه لا تصحح من طرف الشيخ ابن باديس نظرا لقوة أسلوبه ووضوح طرحه، بينما كان ابن باديس يصحح نصوص طلبته الآخرين، ويحذف ما يراه خاطئا أو غير مناسب.

وبعد انتهائه من الدراسة، لم يلتحق بجامع الزيتونة كما فعل كثير من زملائه، ففضل أن يمكث مساعدا لشيخه حتى وفاته في عام 1940م.

في مجال التربية والتعليم:

لقد كلف الشيخ مرحوم بالتدريس في مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة في عام 1937م. ثم عيّن مديرا لمدرسة التربية والتعليم ببسكرة. وشغل بعد ذلك نفس المنصب في مدرسة التهذيب ببرج بوعريرج ثم مدرسة الفتح بسطيف. وعيّن عضوا في لجنة التعليم العليا في سنة 1947م. وعمل

مفتشا جهويا لمدارس جمعية العلماء بسطيف وبسكرة وبرج بوعريرج، وبقي في هذا المنصب إلى غاية سنة 1956م.

نشاطه الصحفي:

كتب في جريدة "البصائر" لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والشهاب لصاحبها الشيخ ابن باديس، وجريدة "الفرقان" لصاحبها أبي اليقظان وجريدة "المغرب العربي" لحمزة بوكوشة[1].

وساهم أيضا في الصحافة التونسية كجريدة "الأسبوع"[2]، والصحافة المغربية كمجلة "دعوة الحق" التي كان يكتب فيها باسم مستعار وهو: أحمد مراد.

وعيّنه الشيخ ابن باديس متجوّلا لمجلة "الشهاب" وجريدة "البصائر" بين 1937م و1939م. وهكذا زار أغلب المدن الشرقية. وقد كان أثناء هذه الزيارات يعرّف بهذه الجرائد الإصلاحية، ويحث الناس على دعمها بالاشتراك فيها أو التبرع لها بالأموال لمواصلة مسيرتها التنويرية.

وكان في كل مرة يكتب عن تجربته الشخصية وانطباعاته عن جولاته، وهي خواطر تتدفق حيوية وتتميز بالدقة في تصوير المشاهد، وجرأة في انتقاد بعض العادات السيئة والسلوكات المرفوضة. وقد أثارت انتقاداته ردة أفعال بعض الأعيان والقراء.

---

(1) علي مرحوم. نظرة على تاريخ الصحافة العربية الجزائرية، الثقافة، العدد 42، ص 36.

(2) علي مرحوم. ترجمة الشيخ مبارك الميلي بمناسبة ذكراه الثانية. الأسبوع (تونس)، 9 مارس، 6 و 20 أفريل 1947م.

لقد استطاع الشيخ مرحوم بفضل هذه العلاقة القوية بالصحافة وصلته المتينة برجالها أن يكسب رصيدا كبيرا في هذا الميدان، وأن يكون من الأوائل الذين كتبوا في تاريخ الصحافة الجزائرية وخلدوا صفحاتها المشرقة.

في قلب الثورة:

بادر الشيخ علي مرحوم إلى الالتحاق بالثورة التحريرية لأنه اعتبرها تتويجا للجهود التي بذلتها الحركة الوطنية بشقيها السياسي والثقافي. وكلفته قيادة جبهة التحرير الوطني في عام 1956م بالانتقال إلى المغرب ليشرف على الدعاية لصالح الثورة، فعمل مسؤولا على الإذاعة السرية الجزائرية في تطوان بمساعدة زهير إحدادن وعلي عسول[1].

كما كتب في الصحافة المغربية للتعريف بالقضية الجزائرية، وناضل من أجل حشد مساندة الطبقة السياسية والثقافية المغربية للثورة التحريرية. وكانت مقالاته في مجلة "دعوة الحق" رصاصات يطلقها كل شهر في صدر الاستعمار، وصيحة دوية تكشف جرائمه في الجزائر. وبقي مكافحا في هذا الميدان إلى أن استقلت الجزائر في عام 1962م. وقد كتب الشيخ مرحوم عن بعض هذه الذكريات فيما بعد في مجلة "أول نوفمبر".

(1) عبد القادر نور. شاهد على ميلاد صوت الجزائر. ذكريات وحقائق. منشورات الإذاعة الجزائرية، الجزائر، 2006م، ص 43.

نشاطه بعد الاستقلال:

عمل الشيخ علي مرحوم مفتشا للتعليم الابتدائي والمتوسطي في دائرة القبة إلى أن تقاعد في عام 1974م. وتعاون مع وزارة الشؤون الدينية في مجال التوجيه الديني بإلقاء الدروس في المساجد والإذاعة. كما عيّن عضوا في المجلس الإسلامي الأعلى.

وواصل كتاباته الصحفية، فنشر مقالات تاريخية واجتماعية وأدبية في عدة جرائد ومجلات الجزائرية، كـ: "الأصالة"، و"الثقافة"، و"أول نوفمبر"، و"الشعب"، و"النصر"، و"العصر" ... إلخ. وهو تناول في غالب الأحيان قضايا تاريخية وتراجم لأعلام جزائرية وإسلامية معاصرة أمثال: عبد الحميد بن باديس، العربي التبسي، مبارك الميلي، محمد العابد الجلالي، الفضيل الورثلاني، الدكتور سعدان، عبد الرحمان الكواكبي، عمر المختار... إلخ.

وفاته وآثاره:

توفي الشيخ علي مرحوم في يوم 9 جويلية 1984م بالمستشفى العسكري بالجزائر العاصمة فانضم بذلك إلى سجل الخالدين في تاريخ الجزائر المعاصر.

ألف الشيخ مرحوم رواية عنوانها: "الصراع بين الحق والباطل"، وقد مثلت كمسرحية في مدارس جمعية العلماء[1]. كما أصدر كتاب عنوانه: "من مدرسة النبوة" عن دار البعث بقسنطينة عام 1984م.

(1) محمد الحسن فضلاء. من أعلام الإصلاح في الجزائر. دار هومة، الجزائر، 2002م، ج 2.

وكتب له الشيخ أحمد حماني تقديما أبرز من خلاله مسار مؤلفه الذي تربطهما علاقة قوية، وكشف قيمة الكتاب الذي قال عنه أنه: "طرق فيه عدة موضوعات معنونة بـ: (مع... وبعد مع...) يذكر هذه الشخصيات الطيبة الطاهرة ويتيح للقارئ أن يعيش معها في جو عطر وحياة روحية سامية".

بينما كتب الشيخ مرحوم تقديما لكتاب: "ألحان الفتوة" للأستاذ محمد الصالح رمضان في الطبعة الثالثة الصادرة في سنة 1964م.

أما مقالات الشيخ مرحوم المبثوثة في الجرائد والمجلات، ومحاضراته التي ألقاها في مناسبات ثقافية عديدة فهي كثيرة، جمعنا بعضها في المجلد الرابع لكتابنا "تراث الحركة الإصلاحية الجزائرية"، ونتمنى أن نواصل جمع ما تبقى منها في طبعات أخرى بحول الله.

انطباعات عن الإسلام والمسلمين في الصين الشعبية

بقلم الشيخ علي مرحوم

الجمعية الإسلامية الصينية القائمة:

أسست هذه الجمعية في سنة 1953م بصفة رسمية، ويوجد مقرها العام في العاصمة بكين وهي التي تمثل عموم المسلمين في الصين، وتتحدث باسمهم لدى الدوائر الرسمية.

وتتكوّن الجمعية من مندوبين مفوضين من الجمعيات المنبثة في كبريات مدن المقاطعات، والولايات العديدة في الصين ومقرها العام في بكين بعمارة كبيرة تتكون من ثلاثة طوابق، في أحدها مسجد لصلاة الجمعة والجماعة، ومتحف لمختلف الآثار الإسلامية، ومن بينها مصاحف قرآنية وكتب أثرية باللغة العربية وأقسام للشؤون الإدارية وما إليها وأقسام أخرى للدراسة العربية.

وقد زرنا أحدها أثناء وقت الدرس فألفينا فيه طائفة من التلاميذ الكبار الذين لا يقل أعمارهم عن خمس عشرة سنة، ومستوى الدرس الذي كانوا يتلقونه لا يتجاوز مرحلة القراءة والكتابة في التعليم الابتدائي.

تاريخ دخول الإسلام إلى الصيـن:

بعد هذه التوطئة الموجزة يحسن بنا أن نعود بالقارئ قليلاً إلى الوراء... إلى تاريخ دخول الإسلام إلى الصين، وفي هذا الموضوع يقول أحد الباحثين الصينيين في أوائل الستينات: «وفي سنة 31 هـ/651م قدم إلى البلاط الملكي الصيني وفد من بلاد العرب يحمل هدايا، وادعى هذا الوفد أن دولته أسست قبل إحدى وثلاثين سنة، وهذا يدل على أن ذلك الوفد جاء إلى الصين في عهد الخليفة عثمان بن عفان».

وتقول الروايات المتداولة بين مسلمي الصين: أن تلك القصة كانت تشير إلى أول مرة دخل الإسلام فيها الصين، وكان الوفد يضم خمسة عشر شخصًا جاءوا عن طريق المحيط الهندي وبحر الصين.

وبعد أن تقصى الإمبراطور الأمر واستفهم عن دين محمد أقر هذا الدين، وأعطى جماعة الوفد الحرية لنشر دعوتهم (دعوة الإسلام وعبر عن إعجابه بالإسلام، فأمر بتشييد أول مسجد في "تشانجان"، وهو حدث هام في تاريخ الإسلام، ولا يزال هذا المسجد قائما بحالة ممتازة بعد أن امتدت إليه يد الترميم والتجديد خلال عصور طويلة[1].

وإذا أخذنا بقول هذا الكاتب الصيني المسلم عن تاريخ دخول الإسلام إلى بلاده فلا بد أن ندرك مدى سرعة انتشار الإسلام إذ وصل إلى أقصى قارة آسيا شرقًا، وبعد فترة قصيرة نسبيًا من ظهوره، لم تتجاوز ثلث قرن .. ومن غير أن تبذل جهود كبيرة في نشره بين الناس، سوى ما امتاز به هذا الدين من سماحة وبساطة.. في المعاملة، ودعوته إلى تطبيق شرعة العدل والتساوي بين مختلف الأجناس.

وبذكر بعض المؤرخين في رواية أخرى أن الإسلام قد دخل إلى الصين أول ما دخل في أواخر القرن الهجري الأول وعلى وجه التحديد في سنة ست وتسعين هجرية.. على يد قتيبة بن مسلم الباهلي في خلافة الوليد بن عبد الملك الأموي.

(1) الإسلام الصراط المستقيم، ص. 169-170.

عدد المسلمين في الصين قديمًا:

إن أصح مرجع يمكن الاعتماد عليه والثقة به في إحصاء عدد المسلمين في الصين قديمًا، هو ما كتبه الأمير شكيب أرسلان في كتابه[1]: "حاضر العالم الإسلامي" سنة 1932م أو 1933م"، في بحث مستفيض ضمنه كثيرًا من أقوال المؤرخين عن عدد مسلمي الصين منها أقوال مؤلفين وباحثين أجانب، منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي أوائل القرن العشرين، ومنها أقوال لبعض مسلمي الصين أنفسهم، من الذين وفدوا على القاهرة، ومنهم رئيس البعثة الصينية[2]، التي جاءت للدراسة في الأزهر سنة 1931م، ومنهم عالم صيني[3] مسلم جاء إلى مصر سائحًا،

(1) حاضر العالم الإسلامي هو للكاتب الأمريكي لوثروب ستودارد (1883-1950م)، نقله إلى العربية عجاج نويهض، وعلّق عليه الأمير شكيب أرسلان. نشر للمرة الأولى في عام 1925م بالقاهرة في المطبعة السلفية لصاحبها محب الدين الخطيب. وأعيد طبعه عدة مرات. ولم يشر الشيخان إلى الطبعة، لكن تأكدت بأنها الطبعة الرابعة الصادرة في عام 1973م والصادرة عن دار الفكر بدمشق في 4 أجزاء.

(2) رئيس البعثة الصينية في الأزهر هو: محمد إبراهيم شاه كوجين. وقد أجرت معه مجلة المعرفة المصرية حوارا شاملا حول المسلمين في الصين، وكذلك رأيه في مستقبل الصين في عالم مقبل على الحرب خاصة تهديدات جارتها اليابان. أنظر: بركان الشرق الأقصى كما يصوّره أحد الصينيين. المعرفة، ص 1329-1330. كما نشر في مجلة الرسالة "رسالة من مسلمي الصين إلى مسلمي العالم" ص 870-872.

(3) هو الأستاذ واي ون كين. أنظر حواره في: حاضر العالم الإسلامي، ج 2، ص 268-270.

حوالي سنة 1932م. ومقالتا هذين الرجلين نشرتا في صحيفة "الأهرام" المصرية[1].

كما نشرت جريدة "الفتح" بالقاهرة مقالتين اثنتين بتاريخ سنة 1930م[2]؛ أولهما: لمحمد مكين الصيني[3] من مجاوري الأزهر تحدث فيها بإطناب عن "الإسلام في الصين غابره وحاضره"، وحديث آخر نشرته صحيفة "الجامعة العربية" بالقدس سنة 1930م أدلى به وفد مسلم صيني أثناء زيارته للقدس بفلسطين.

وجميع هؤلاء الصينيين المتحدثين عن عدد إخوانهم المسلمين في بلاد الصين لم ينزلوا بهذا العدد عن الخمسين مليونا إبّان التاريخ المشار إليه آنفًا[4].

وقد قال شكيب أرسلان[5] -رحمه الله- ما يلي: «إن الجغرافيين وعلماء الإحصاء إلى اليوم لم يتفقوا على عدد المسلمين الصينيين"،

---

(1) أعاد شكيب أرسلان نشر المقالين في كتاب حاضر العالم الإسلامي. دار الفكر، 1973م، ط 4،ج 2، ص 264-267؛ 268-270.

(2) والصواب هو 1936م و1937م.

(3) محمد مكين (1906-1978م). سبق التعريف به في مقدمة هذا الكتاب. وقد نشر أرسلان المقالين في حاضر العالم الإسلامي، ج 2، 271-285.

(4) حاضر العالم الإسلامي، ج2، ص 263-283.

(5) شكيب أرسلان عالم وأديب ومصلح سياسي واجتماعي لبناني. ولد بقرب من بيروت في 25 ديسمبر 1869م. شارك في تحرير كثير من الصحف العربية الصادرة في عصره، كما كان له نشاط سياسي بارز للدفاع عن القومية العربية ومقاومة السياسات الاستعمارية في العالم العربي. له مؤلفات عديدة منها: سيرة ذاتية =

فمنهم من يجعله عشرين مليونًا ومنهم من يجعله 25 مليونًا، ومنهم من يقول 30 مليونًا، ومنهم من يقول 40 مليونًا، وكثيرون أكدوا القول أن في الصين 60 مليون مسلم، ومن هؤلاء بعض العلماء من مسلمي الصين، جاءوا إلى الآستانة، ومصر وأكدوا أن المسلمين روى لي مستشار سفارة الصين في (بيرن) عاصمة سويسرة وبخلافة قال غيرهم»[1].

ويضيف شكيب أرسلان ناقلاً عن كتاب: "المحمدية في الصين" لمؤلف فرنسي قوله: «إن المسلمين لهم بال كبير في المملكة الصينية (أي في العهد الإمبراطوري) أنهم كانوا في كثير من نواحي شمال الصين نحو ثلث السكان.ويراهم الإنسان أعلى درجة من سائر أبناء وطنهم، وأعز نفوسًا، وأصرح نظرًا، وهم لا يشربون المسكرات ولا التبغ ولا الأفيون فنجدهم أصح أجسامًا من أبناء الملل الأخرى.

ويوجد بينهم تضامن يجعلهم أسعد حالاً، وأعظم ثروة من غيرهم ويفرضون على جماعاتهم ضريبة معلومة نظير العشر من الدخل، لأجل اتفاقه في مصالح الجماعة...، وفي بعض الولايات عندهم مدارس يتعلمون فيها اللغة العربية ويفهمون بها معاني القرآن. كما أن الصلاة هي في كل مكان بالعربية ويوجد مئات من الجوامع»[2].

تعليق على حاضر العالم الإسلامي لوثروب ستودارت، السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة، النهضة العربية في العصر الحديث، لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟، التعريف بمناقب سيدي أحمد الشريف السنوسي... إلخ. توفي الأمير شكيب أرسلان في بيروت يوم 9 ديسمبر 1946م.

(1)حاضر العالم الإسلامي، ج 2، ص. 219.

(2)حاضر العالم الإسلامي، ج 2، ص. 222.

وآخر قول يحسن النظر إليه بعين الاعتبار عن عدد المسلمين بالصين -لأن هذا القول قريب من وقتنا الراهن-، هو ما سجله أحد أبناء الصين في بحث له عن "الثقافة الإسلامية في الصين" وهذا الكاتب هو: "داود س. م. تنج" الذي كان موظفًا في قنصلية جمهورية الصين الوطنية في بيروت - لبنان. في بداية الستينات.

قال داود س. م. تنج: هناك أرقام كثيرة، هي موضع الاختلاف بصدد تعداد المسلمين في الصين، ويذكر "كتاب الصين السنوي لعام 1968م"، أن السكان المسلمين في الصين يبلغ عددهم: ثمانية وأربعين مليونًا ومائة وأربعة آلاف نسمة، والتقدير الرسمي للحكومة يقارب الخمسين مليونًا. وهو رقم يعده مسلمو الصين أضبط رقم يوثق به»[1].

وضعية المسلمين قديمًا في الصين:

أشرت فيما سبق إلى ما قيل عن إحصاء مسلمي الصين إبّان الحكم الإمبراطوري الذي امتد إلى سنة 1911م، بعد أن عمر قرونًا موغلة في القدم.. وقبل قيام عهد الحكم الجمهوري في التاريخ الآنف الذكر.

وقد تعاقبت على المسلمين أثناء ذلك التاريخ أي في ظل النظام الإمبراطوري والجمهوري، في أوائل قيامه أحوال وظروف تراوحت بين القوة والتمكن تارة وبين الضعف سياسيًا واقتصاديًا تارة أخرى.

ويسجل بعض المؤرخين مدى ما بلغه المسلمون من مكانة مكينة، في فترات من تاريخ وجودهم في الصين إذ كانوا يحتلون مناصب

(1) الإسلام الصراط المستقيم، ص. 180.

وزارية في الدولة، ومراتب قيادية في الجيش، ولهم شأن يذكر في مجال الاقتصاد وفي عالم الفكر والثقافة.

وقد كانت لهم مدارس ومعاهد متعددة لتعليم الدين واللغة العربية في مختلف الولايات وفي فترات تاريخية أخرى تشير الروايات إلى ما حل بالمسلمين من اضطهاد وما سلط عليهم من ظلم واستبداد مما جعلهم يضرمون نار الثورة في بعض الولايات عدة مرات دفاعًا عن أنفسهم ودينهم وأعراضهم.

وقد اندلعت خلال الفترة الزمنية 1758-1875م خمس ثورات وسجلت وقائعها في عشرات المجلدات. كما جاء ذلك فيما كتبه المواطن الصيني محمد مكين الذي تقدم ذكره[1].

وأما بعد قيام العهد الجمهوري منذ سنة 1911م فقد استرجع المسلمون حرية التدين والاعتقاد بصفة واسعة، ك: شأن مواطنيهم من أتباع الأديان والمعتقدات الكثيرة الأخرى، وتذكر الروايات أن "الحرية الدينية تامة في الصين. وقد أعلنت رسميًا في القانون الأساسي الذي أعلن سنة 1913م بدون تفريق بين أجناس ولا أديان بل الديانة حرة".

والحرية هي عبارة عن مجموع الحقوق المدنية لكل إنسان في شخصه، وأمواله، وشرفه وعقيدته، فكل ذلك يحميه القانون وبرغم مرور المسلمين ببعض الفترات في أوائل عهد الجمهورية وقع عليهم فيها ضغط واعتداء، كما وقع عليهم فيها ضغط واعتداء كما وقع مثله على أهل المعتقدات الأخرى، ولكن سرعان ما عاد المسلمون إلى التمتع بتمام

(1) حاضر العالم الإسلامي، ج 2، ص. 273.

حريتهم في إقامة شعائرهم الدينية، «ولقد استفاد المسلمون من هذه الحرية الدينية وصاروا يجاهرون بشعائرهم أكثر من ذي قبل، وصاروا ينقشون على أبواب المساجد الآيات بالحروف العربية والإعلان بأن هنا مدرسة لتحفيظ القرآن وهنا جمعية خيرية وهلم جرا».

ومضى الكاتب يقول: «ولو أن الحكومات الصينية أظهرت من التسامح الديني، منذ مائة سنة ما أظهرته منذ سنة 1913م، لما وقع شيء من هذه الثورات التي أثارها المسلمون في ولايات: كانسو، وتركستان، وينان... إلخ. ولهذا يمكن القول أن الانقلاب الذي حصل في الصين قد أفادهم»[1].

جمعيات إسلامية صينية في العهد الجمهـوري:

أتيح للمسلمين في ظل هذا العهد أن يعملوا على توحيد كلمتهم، وجمع شملهم وتنظيم شؤونهم الدينية والاجتماعية، وذلك بتكوين جمعيات رسمية تعنى بكل ما يهمهم من شؤون حياتهم وأولى هذه الجمعيات، هي:

1. جمعية التقدم الإسلامية في الصين:

أسست في بكين سنة 1332 و1913م على يد أحد الحجاج أهوند وانج بعد أن عاد من أداء فريضة الحج، وزيارة تركيا ومصر.

وبعد مشاهدته للتقدم الثقافي للبلاد الإسلامية فشعر بمسيس الحاجة إلى نشر الثقافة بين مسلمي الصين، ولذا أقدم على تكوين منظمة

(1) المصدر السابق، ص. 254، ج 2.

وطنية لتوحيد الطاقة البشرية والقوى المادية، لأبناء الجالية الإسلامية، في سبيل رفع مستوى معيشة المسلمين، وتحسين مستواهم الثقافي.

وقد لاقت منظمته هذه قبولاً حسنًا من الناس، وكان هدفه الأول: إضافة بضع ساعات لتعليم اللغة العربية، وتدريس الدين الإسلامي في المدارس الابتدائية الموجودة في المساجد. ومع أن أهداف هذه المنظمة كانت دينية محضة، فقد تسلل إليها أصحاب الأغراض السياسية فقضوا عليها بعد ثلاثة أعوام من ولادتها «والسياسة ما دخلت شيئًا إلا أفسدته».

2. الجمعية الأدبية الإسلامية في الصين:

تأسست في عام 1345هـ/1926م، في (شنغهاي) على يد حاجي جلال الدين هاتي، وهو عالم شهير وكان يعرف اللغات: العربية، والفارسية والأوردية والانكليزية.

وقد أنشأت هذه الجمعية لتشجيع دراسة القرآن الكريم، والحديث الشريف وتحسين التعليم الإسلامي ونشره، والعمل على زيادة التبادل الثقافي مع مسلمي البلدان الأخرى وتحسين وضع المسلمين الاجتماعي في الصين.

وكان أول ما قامت به هو ترجمة القرآن إلى اللغة الصينية، ولكن هذه الترجمة لم تتم، بسبب نشوب الحرب الصينية اليابانية يومئذ.

وأصدرت "المجلة الإسلامية الصينية" مرة في كل شهر، ثم مرة في كل ثلاثة أشهر ونظمت الجمعية إلقاء محاضرات عامة، ودورات لتدريس الدين الإسلامي، باعتبار ذلك جزءًا من برمجها التعليمي، وفتحت مدرسة للمعلمين، وأخرى ابتدائية. كما أنشأت مكتبة إسلامية للمطالعة العامة

وقدمت مساعدات للطلبة المسلمين في جامعة شنغهاي. والملاحظ أن برنامج هذه الجمعية كان أشبه ما يكون ببرنامج جمعية العلماء.

3. الجمعية الإسلامية الصينية:

وهي غير الجمعية الموجودة حاليًا والتي أشرت إليها في مطلع هذا المقال، أسست في سنة 1357هـ/1938م. في بداية الحرب الصينية اليابانية.

وقد أمرت الحكومة المركزية آنذاك ضابطًا مسلما برتبة (جنرال)[1] يعمل في القوات المسلحة بتكوين منظمة تنتشر في ربوع البلاد، وتعمل لتوحيد كلمة المسلمين في الصين، في سبيل تأييد الحكومة، وكسب عطف الرأي العام في العالم الإسلامي.

وهذه هي المنظمة الإسلامية الوحيدة في تاريخ الصين، والتي أوعزت الحكومة بتأسيسها، وقد اضطلعت بأعمال دينية وسياسية معًا، فقد جمعت شمل المسلمين، ووحدتهم في محاربة اليابانيين.

وفي ميدان التعليم أنشأت لجنة للدراسات الدينية، تعمل لترجمة القرآن، وطبع الكتب والنشرات الدينية وأتاحت للنابهين من الطلاب المسلمين الدراسة في جامعات تركيا، ومصر، وعززت أواصر الصداقة، والتبادل الثقافي مع الشرق الأوسط[2].

(1) لعله يكون الجنرال عمر باي تسون هسي.

(2) الإسلام الصراط المستقيم، ص. 186-197.

هذه انطباعات عن حياة إخواننا المسلمين في بلاد الصين وتطورها خلال التاريخ القديم والقريب، اعتمد فيها أوثق المصادر التي كتبها منذ بضعة عقود زمنية مثقفون من أبناء الصين ومن غيرهم والبقية تأتي إن شاء الله[1].

وضعية المسلمين في الصين اليـوم:

وأعود الآن إلى الحديث عن أحوال المسلمين في الصين اليوم بصفة إجمالية؛ لأن الإلمام الواسع بشؤونهم من جميع الجوانب: الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، يحتاج إلى إقامة تستغرق شهورًا بين ظهرانيهم.

ذلك أن الوطن الصيني -قديمًا حديثًا- يعتبر عالما مستقلاً بنفسه، ودراسة تاريخه في مختلف أطوار حياته له أهمية قصوى، من الوجهة العلمية والإنسانية.

وقد مثل المسلمون في تاريخ الصين أدوارًا إيجابية حية،منذ استقرار الإسلام في كثير من ولاياته، طوال ثلاثة عشر قرنًا فكان لهم التأثير الفعال في حياة الصين سياسيًا واقتصاديًا.

ونهضوا -تبعًا لذلك- بأعباء مناصب عليا في الدولة سواء في عهود النظام الإمبراطوري أوفي نظام الحكم الجمهوري، ولكن إلى الآن لا نجد بين أيدينا المصادر أو المراجع التاريخية الموثوق بها عن حياة الإسلام

(1) تمت الحلقة الأولى، العصر، العدد 78، 24 ربيع الثاني 1403 هـ/7 فبراير 1983م، ص 11-13.

والمسلمين، التي تكاد تدخل في عالم النسيان، وبعث هذه الحياة من جديد يتطلب كتابة عدة مجلدات.

إن البحث القيّم الذي كتبه الأمير شكيب أرسلان في كتابه: "حاضر العالم الإسلامي" عن (المسلمون في الصين)، قد اعتمد في أغلبه على ما كتبه مؤلفون أجانب وهو غير كاف في الموضوع.

كما أن الفصل الذي كتبه أحد مسلمي الصين -على أهميته- في كتاب: "الإسلام الصراط المستقيم"، لا يغني في مجال التحقيق التاريخي حول إسلام ومسلمي الصين، من ذلك -على سبيل المثال- أن الكثير من الذين تعرضوا لذكر عدد مسلمي الصين في الماضي قدروا العدد بنحو خمسين مليونًا أو أكثر -كما أشرت آنفًا-، ولكن الوثائق الرسمية التي قدمت إلينا في هذه الأيام لا يزيد عدد المسلمين فيها عن ثلاثة عشر مليونًا فقط.

وحينما نقارن بين العددين لا بد أن نحتار من هذا الفرق الكبير في العدد، بين الماضي والحاضر؟ ولسنا ندري -ولا المنجم يدري- كيف تقلص عدد المسلمين في أقل من نصف قرن من الزمن، بنحو أربعة أخماس ما كانوا عليه منذ خمسين سنة؟ مع أن المتعارف في حياة الشعوب البشرية أن يزداد نموها مع مرور الأعوام، لا أن يتضاءل عددها كما نرى في واقع الحال؟

القوميات العشر الإسلامية:

يشكل المسلمون في الصين حاليًا عشر قوميات، في شتى المناطق والمقاطعات، ومن هذه القوميات من تتمتع بالحكم الذاتي سياسيًا.

ولا نعلم بالضبط ماذا يميّز أية قومية عن أختها في غير مجال الدين؟ ولا ما هي خصائص كل قومية بالتحديد، بيد أن العقيدة

الإسلامية هي ميزة الجميع، وهي دعامة ما يوجد بينهم من روح الأخوة، والوحدة، وعواطف المودة والولاء.

ويجمع بين المسلمين في الصين مذهب وحيد، هو: المذهب الحنفي السني، وفيهم الكثير ممن ينحدرون في الأصل من سلالات عربية وفارسية وتركية. وقد يروّجوا تقنيات صينيات منذ عهد قديم.

واتخذ مع مرور الأيام عادات شعب الصين، وتغذوا بثقافته إلى جانب ثقافتهم الأصلية، فأصبحوا الآن جزءًا لا يتجزأ من المجتمع الصيني في جميع مظاهره.

ويمتاز المسلمون بقوة عاطفتهم الدينية، وبحسن استقبالهم لمن يزورهم من إخوانهم المسلمين، ومن العالم العربي لأنهم يرون فيهم المثل الأفضل، من حيث الدين ولغته خاصة.

وقد كانوا يلتفون حولنا كلما زرنا مسجدًا وأدينا الصلاة معهم، معبرين بذلك عما يكنونه لنا من الحب الذي لا يقدرون على التعبير عنه باللغة العربية، إذ أن أكثرهم لا يعرفون أكثر من قولهم: السلام عليكم.

بيد أن طلاقة وجوههم ولطفهم ورقتهم وابتساماتهم تعبر بوضوح عما في قلوبهم نحو الجزائر وأبنائها، قد غدا عندهم رمزًا خالدًا للجهاد في سبيل الإسلام وتحرير أرض الوطن.

وإخواننا المسلمون في الصين شديدو الحرص على توطيد صلاتهم الأخوية الدينية، بإخوانهم في العالم العربي والإسلامي، وذلك لأنهم ظلوا

محرومين من هذه الصلات طيلة عشر سنوات لأن "الثورة الثقافية"[1] قد منعتهم حتى من أداء فريضة الحج، أثناء هذه الفترة التي حل في غضونها بهم العنت الشديد، والاضطهاد الذي لا مزيد عليه في شؤون دينهم وتقاليدهم -كما سيأتي-، مما أثر أسوء الأثر في حياة المسلمين دينيًا وثقافيًا واجتماعيًا، وكاد يقضي على ما كانوا يصبون إليه من تقدم وتطوّر في حظيرة دينهم ووطنهم، ومواكبة مواطنيهم من أهل العقائد والأديان الأخرى.

في زيارة بعض المدن الكبرى

بعد مضي حوالي أربع وعشرين ساعة من نزولنا في بكين انتقلنا في مساء اليوم الموالي بالطائرة إلى مدينة (شيآن)؛ التي تبعد عن بكين بنحو ألف كيلومتر قطعتها الطائرة في ظرف ساعتين اثنتين، وعدد سكان هذه المدينة نحو مليونين ونصف.

وطبقًا للبرنامج المقرر اجتمعنا بأعضاء الجمعية الدينية التي تمثل مسلمي المدينة، ويرأس الجمعية الحاج محمد يونس، الذي رحب بنا في كلمة وجيزة باللغة الصينية، وهو في نفس الوقت إمام المسجد

(1) الثورة الثقافية بدأت مع دعوة ماو تسي تونغ في ماي 1966م الشباب الصيني للانتفاضة ضد التقاليد والقيم الأصيلة، وإيقاف مد البورجوازية في المجتمع الصيني. ولقد ألقت ضحيته استجابة سريعة وانتشرت وعمت في البلاد. لكن هذه الثورة انحرفت واستعملت كل وسائل العنف لقهر من تعتقدهم حقيقة أو ظلما أعداء للثورة البروليتارية. وقد ذهب ضحيتها آلاف من المثقفين والعلماء، ودمر الكتيبات الحمراء كل ما يرمز إلى ماضي الصين وعراقة تراثها وهدمت معابد ومساجد وآثار لا تقدر بثمن.

الكبير الذي شيّد في أواخر القرن الثاني الهجري، ويعد أقدم مسجد في المدينة.

وفي جناح منه يوجد مقر الجمعية الدينية، وقد أدينا صلاة العصر في هذا المسجد مع جماعة المصلين الذين يقل فيهم عنصر الشباب، وكانت إمارات السرور والابتهاج بمحضرنا بادية على وجوه الجميع.

وقبل مغادرتنا للمسجد سجلنا كلمات بالمناسبة في دفتر التشريفات، وفي مدة يومين بمدينة شيان اطلعنا مع مرافقينا على كثير من المعالم والآثار الإسلامية؛. التي تذكر بما كان للمسلمين من شأن فيها.

ومن هذه المدينة انتقلنا بالطائرة أيضًا إلى أكبر مدينة في الصين وهي مدينة شنغهاي؛ التي قيل لنا أن عدد سكانها يبلغ أحد عشر مليون نسمة، بضم ضواحيها إليها.

وهي فعلاً مدينة عظيمة في مظاهرها ومناظرها الخلابة، وفي نهرها الكبير الذي يتخلّلها، وفي منظر السفن التي تغدو وتروح في مياهه.

وهي مركز عظيم من مراكز الثقافة والاقتصاد على المستوى الوطني والعالمي، وجوّها معتدل ومناخها جميل وأهلها يغلب عليهم طابع الرقة واللطافة والأدب الجم؛ مثل أغلبية أبناء الصين.

وفي مقر الجمعية الدينية الذي واجهتنا على بابه الخارجي هذه الآية القرآنية الكريمة ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾، مكتوبة بحروف كبيرة جميلة، في هذا المقر استقبلنا أحسن استقبال من طرف رئيس الجمعية وأعضائها.

وبعد تبادل الكلمات الودية التي كان يتولى ترجمتها من الصينية إلى العربية وبالعكس الأستاذ لقمان المترجم المرافق لنا، اطلعنا على مكتبة

مقر الجمعية التي يوجد فيها مصاحف مخطوطة، وكتب أثرية ثمينة باللغة العربية.

وقد أدينا صلاة المغرب بجانب إخواننا في المسجد الموجود بمقر الجمعية وهو في عمارة قائمة على الطراز الحديث، والمسلمون في هذه المدينة يعدون أقلية قليلة العدد، بالنسبة للعدد الضخم من مختلف الملل والنحل المتساكنة فيها، ولكنهم يحظون بمكانة اجتماعية محترمة.

وقد قيل لنا: أن عددهم لا يتجاوز خمسين ألفا في الجملة، ووضعهم تنطبق عليه القاعدة الاجتماعية في عمومها، وهي أن الأقلية غالبًا ما تكون رقى ثقافة وأكثر تقدمًا وأقوى اقتصادًا. بالقياس إلى عناصر الأكثرية المعايشة لها. ولذا فهم يتمتعون بكامل الحرية الدينية، والحقوق السياسية أيضًا.

ويوجد مندوبون عنهم في جميع الإدارات تقريبًا، ويمثلهم خمسة أعضاء في المجلس الاستشاري الأعلى للمدينة، كما أن لهم مدرسة ثانوية خاصة بهم وخمس مدارس ابتدائية ولكن في عهد الظلم والظلام؛ الذي فرضته (الثورة الثقافية) أغلقت للمسلمين خمسة مساجد في شنغهاي كما وقع في غيرها من المدن.

كما توجد دكاكين لبيع اللحوم والمواد الغذائية خاصة بالمسلمين؛ لأنهم يكرهون أن يشتروا حاجياتهم من المحلات التي يباع فيها لحم الخنزير والكحول وغيرهما مما يحرمه الدين الإسلامي.

وفي هذه المدينة شنغهاي أقام لنا مسؤول شؤون القوميات فيها (وهو مسلم) مأدبة عشاء فاخرة، حضرها من يمثلون الجمعية الدينية، وأفراد من إدارة القوميات إلى جانب أعضاء وفدنا.

وتبودلت أثناء المأدبة كلمات الود والصداقة التي تربط بين البلدين الصديقين الجزائر والصين، في جو من البهجة والانشراح، وفي مدة ثلاثة أيام التي أقمناها بالمدينة أتيح لنا أن نزور أكبر معرض لأنواع المنتوجات والبضائع الكثيرة، كما أطلعنا على مختلف الآثار والمعالم في المناطق السياحية الفريدة من نوعها.

ومن الجدير بالذكر أن هذه المدينة قد احتلت في أوائل الثلاثينات من طرف ثلاث دول كبرى هي: إنكلترا، وفرنسا واليابان، فظلت هذه الدول تقتسم سلطة حكم المدينة فيما بينها بضع سنين ويمتد حكم اليابان إلى عدة مناطق خارجها.

ولكن الصينيين بفضل كفاحهم استطاعوا أن يطردوا المحتلين المعتدين الثلاثة، ويحرروا المدينة من احتلالهم، ويعيدوها إلى أحضان الوطن الأم.

والملاحظ أيضًا أن لبريطانيا سوابق إجرامية في الصين إبّان حرب (الأفيون) التي شنتها على الصينيين أثناء سنة 1840م، من أجل القضاء على طاقاتهم الصحية والعقلية. وفي هذا التاريخ نفسه أمكن للمبشرين المسيحيين أن يتسربوا إلى الوطن الصيني، ويستقروا فيه إلى يومنا هذا.

في العاصمة بكيـن:

بعد إنهاء زيارتنا لشنغهاي -كما أشرت- عدنا إلى بكين على متن الطائرة التي قطعت المسافة بين المدينتين في نحو ساعة ونصف، وذلك بعد ظهر يوم الخامس عشر من نوفمبر 1982م.

وكان أول عمل لنا هو القيام بزيارة -في مساء نفس اليوم- لأقدم مسجد في بكين؛ التي قيل لنا أن فيها ما يزيد عن عشرين مسجدًا.

وأدينا صلاة المغرب في هذا المسجد بإمامة الحاج داود؛ الذي أطلعنا على ما حوته مكتبة المسجد من مصاحف وكتب مخطوطة إلى جانب الكتب المطبوعة.

ولاحظنا أن المسجد يبدو في حلة قشيبة، ومظهر جميل قد كتبت على جدرانه آيات قرآنية وأحاديث نبوية، وأقوال مأثورة بماء الذهب. وسألنا عن ذلك؟ فقال الإمام أن الحكومة هي التي تولت ترميمه وتجديد ما خرب منه أثناء عهد ما يسمى بالثورة الثقافية السيئة الذكر، وهي -أي الحكومة- قدمت من الذهب نحو أربعة أرطال لكتابة ما تشاهدون وليس الخبر كالعيان.

وفي صبيحة اليوم الموالي (1982/11/16م) كان مقررًا أن نذهب لزيارة "جدار الصين" الشهير، الذي كان يبعد عن بكين بحوالي ثمانين كلم. وهذا الجدار العجيب يعد مأثرة خالدة من المآثر التاريخية للأمة الصينية العريقة في الحضارة الإنسانية.

وقد أقيم هذا الجدار -حسبما روى لنا- سنة 400 قبل الميلاد، ويبلغ طوله نحو (6000) آلف كيلومتر، وعلوه 7 أمتار، وعرضه من 7 إلى 10 أمتار. وفي كل يوم تهرع إلى زيارته أفواج السواح من الأجانب والمواطنين، الذين يحجون إلى مشاهدته.

وواصلنا زيارتنا الاستطلاعية لمواقع المعالم والآثار التاريخية في مدى ثلاثة أيام متوالية، وقد أخذ الصديق محمد الصالح رمضان على عاتقه أن يسجل لقراء "العصر"، هذه المشاهد بما تستحقه من التحليل والتفصيل.

وقد كان أثناء تنقلنا بين تلك المعالم والمآثر، يسأل عن كل صغيرة وكبيرة، ولا تخلو تعاليقه على ما يرى ويسمع من المبالغة -أحيانًا- في التدقيق والتحقيق.

المسلمون وعهد الحكم القائم اليوم:

يتمتع مسلمو الصين -حيثما وجدوا في الولايات والمقاطعات- في العهد الراهن، بكامل الحرّية في شؤون دينهم ومعتقداتهم -كشأن بقية الأديان والمعتقدات الكثيرة الأخرى-. كما يتمتع بنفس الحرّية من لا يدينون بأي دين ولا ينتمون إلى أيّة عقيدة أو نحلة.

وقد أنبأنا إخواننا بأنّ الحكومة لا تألوا جهدًا في مد يد العون لترميم وإصلاح ما خرّبه العهد الجهنمي البائد تحت شعار (الثورة الثقافية) المتعسفة.

لقد جاء في وثائق "المؤتمر الإسلامي الصيني الرابع" الذي عقدته في بكين الجمعية الإسلامية في شهر أبريل 1980م، ما يلي حرفيًا: «مضت 17 سنة على اختتام المؤتمر الإسلامي الصيني الثالث عام 1963م دون أن يعقد أي مؤتمر خلال هذه المرحلة، بسبب التخريبات الخطيرة الناجمة عن نهج "لين بياو[1]" و"العصابة الرباعية"[2] للخط اليساري المتطرف.

---

(1) ليان باو (1907-1971م) قائد عسكري صيني، شغل منصب وزير الدفاع للجمهورية الصينية الشعبية بين 1959م و1971م.

(2) هي المجموعة المكونة من المسؤولين الصينيين (4) الذين تم اعتقالهم وطردهم من الحزب الشيوعي الصيني بتهمة إطلاق الثورة الثقافية التي زرعت الرعب وقتلت الآلاف من الأبرياء وأدخلت البلد في فوضى بين 1966م و1976م.

أما في غضون السنوات العشر التي مارسوا فيها تصرفاتهم الإجرامية، فقد ديست سياسة الحكومة بالإقدام حيث وصم الكثيرون من الشخصيات الإسلامية بتهمة (الغيلان) وتعرّضوا للجور والاضطهاد، وهدمت أعداد كبيرة من المساجد والجوامع، أو أغلقت أبوابها أو استعملت لأغراض أخرى. وتعرضت الآثار التاريخية والأسفار الدينية للتخريب»[1].

وجاء في نفس المصدر ما يلي نصّه: «على صعيد المسألة الدينية، فقد داسوا (يعني أفراد العصابة) بدون مبالاة البند؛ الذي ينّص في دستور الدولة على السماح للمواطنين بحرّية العقيدة الدينية، وشوّهوا وخرجوا السياسة الدينية التي صاغتها الحكومة الشعبية، وتدخلوا في حياة المسلمين الدينية عنوة في محاولة عابثة لاستئصال شأفة الأديان.

وفي الوقت نفسه أحرق أو مزّق عدد كبير من الأسفار الإسلامية بما فيها روائع المصاحف القرآنية المخطوطة، وأن العديد من الجوامع القديمة كانت عرضة للتخريب الشديد، وكانت حياة المسلمين الدينية، معرضة للتدخل والتحريم بالقوّة».

وتضيف وثائق المؤتمر القول: «أمّا الآن فقد استأنف تطبيق سياسة الحكومة، حول المساواة القومية، وحرّية العقيدة الدينية، حيث نقض الحكم على الشخصيات الإسلامية والمسلمين الذين اضطهدوا في القضايا الجائرة المفروضة عليهم. كما أعيد الاعتبار إليهم. وأمّا المساجد

(1) وثائق المؤتمر الإسلامي ص 4.

المغلقة سابقًا، فقد فتح بعضها بينما وضع بعضها الآخر موضع الترميم، لإعادة فتحها قريبًا».

«وقد أصبحت عبادات المسلمين مثل: تلاوة القرآن الكريم والصلاة وموضع الاحترام. ونظرًا لأن معظم الكتب الدينية في كل أنحاء البلاد أحرقت، فقد لجأت الجمعية إلى السباق مع الزمن، لإعادة طبع القرآن الكريم ومن المتوقع أن يصدر في النصف الأول من هذه السنة إن شاء الله تعالى»[1].

وأحب أن أشير هنا إلى نبأ سار قرأته في تقرير كتبه أحد الحاضرين في المؤتمر السنوي لرابطة العالم الإسلامي سنة 1403هـ، مفاده أنّه تم طبع وتوزيع مليون نسخة من القرآن الكريم في الصين الشعبية.

ويا حبذا لو تنهض بعض وزارات الأوقاف والشؤون الدينية، في العالم العربي والإسلامي بتزويد الجمعية الإسلامية الصينية في بكين بكمية من الكتب الدينية والعلمية؛ التي يمكن توزيعها على الهيئات الدينية في الصين، وبهذا يوفّر على الجمعية جانب من النفقات التي هي في أشد الحاجة إلى صرفها في مجالات حيوية أخرى.

ومع العلم بأنّ ميزانية هذه الجمعية محدودة بالنظر إلى مواردها التي تتوقف غالبًا على ثلاث جهات وهي:

- **أولاً:** من مورد الأوقاف الإسلامية التي يوقفها على الجمعية بعض المحسنين.
- **ثانيًا:** من تبرعات جماعات المسلمين في الصين، وفي الخارج.

(1) المصدر السابق، ص. 17.

- **ثالثًا:** من مساعدة الحكومة غير الدائمة حسبما أخبرنا به أحد أعضاء الجمعية.

في صلاة الجمعــة:

على الساعة الواحدة بتوقيت بكين قصدنا أحد المساجد، لأداء صلاة الجمعة، فرّحب بنا الإمام ومن في صحبتنا من أعضاء الجمعية، ترحيبًا أخويًا حارًا.

وعند دخولنا إلى بيت الصلاة وجدناها غاصة بجمهور المصلين، ورأينا أحد الشيوخ يلقي درسًا باللغة الصينية على الحاضرين. وفي جانب محدود بحاجز ساتر، كانت توجد جماعة من النساء اللائي أتين لأداء الصلاة. وطلب إليّ أن ألقي كلمة على المصلين فلبّيت الرّغبة.

وكانت كلمة وجيزة عبرت فيها عن مغزى زيارة الوفد الجزائري الإسلامي إلى إخوانه المسلمين في الصين، وأبلغتهم تحيات إخوانهم الجزائريين، الذين تجمعهم وإيّاهم عروة الإسلام الوثقى ودعوتهم إلى العمل على تقوية روابط الأخوة الإسلامية فيما بينهم وبين إخوانهم في أرجاء العالم الإسلامي، مستهدين بقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَالتَّقْوىٰ وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[سورة المائدة 2]، ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾[سورة آل عمران 103].

وكان الأخ لقمان مترجمنا يؤدي ترجمة فقرات الكلمة الملقاة الواحدة تلو الأخرى فارتاح الجميع لما سمعوا، وبدت على وجوههم الغبطة والسرور بالوفد الزائر.

ثم سمعنا خطبتي الجمعة باللغة العربية وبإيجاز حسن، ووضوح في التعبير، وقبل الانصراف من الصلاة كان على الجميع أن يصلوا أربع ركعات نافلة، يحرصون جدًّا عليها.

مع الإذاعة الصينية في بكين:

رغب منا القسم العربي أن نحدّد موعدًا لاستقبال أحد مذيعيه في الفندق الذي كنّا ننزل به، بغية تسجيل كلمة من طرف وفدنا تذاع على مستمعي برامجه باللغة العربية في العالم العربي.

وتمّ تسجيل كلمة موجزة حول موضوع الزيارة بصوت رئيس الوفد، حسب رغبة البرنامج. كما أجبنا على أسئلة مبعوث الإذاعة التي وجهها إلينا في نفس الموضوع.

و"برنامج القسم العربي" في إذاعة بكين، يبث في اتجاه البلدان العربية لمدة ثلاث ساعات يوميًا، خلال خمسة أيام في الأسبوع.

وقد أبى مسؤول البرنامج العربي إلاّ أن يبعث إلينا بإحدى مذيعاته لتقدم إلينا شكره على تلبيتنا لرغبته، وتسجيلنا ما رغب فيه لبرنامج القسم العربي في الإذاعة.

ولا أنسى أن أسجل ملاحظة هامّة جدًّا، وهي أن كلا من المذيع والمذيعة اللذين استقبلناهما كانا يتبادلان الحديث معنا بلسان عربي مبين، على أننا لم نعرف لأيّة عقيدة ينتميان؟

وفي مأدبة عشاء في بكين:

تكرم مسؤول شؤون الأديان وهو برتبة وزير في الحكومة الصينية، فأقام لوفدنا مأدبة عشاء لطيفة، حضرها عضوان من سفارتنا الجزائرية،

إلى جانب أعضاء من هيئة الجمعية الإسلامية. وبعض الموظفين من دائرة شؤون الأديان.

وبعد استقبالنا في قاعة الشاي بغاية الود وتبادل عبارات المجاملة، أخذت صور للمدعوين وانتقلنا إلى قاعة المائدة، وشرعنا في تناول الطعام.

وظننت أن دور الكلام الرسمي قد انتهى وترك مكانه لألوان الأطعمة الصينية، التي وضعت على المائدة بكل دقة ونظام.

وبينما نحن بصدد التهام ما لذ وطاب من تلك الأطعمة الشهية، إذا بسكرتيرة السيد مسؤول شؤون الأديان تأتي إليه وتقدم له ورقتين أو ثلاثًا. لاحظت أنها كانت منهمكة في كتابتها أثناء وجودنا في قاعة الشاي.

وقف السيد على الفور ليلقي كلمة الترحيب بالوفد الجزائري معبّرًا فيها عن بالغ الحفاوة والابتهاج بزيارة وفدنا الإسلامي للصين، منّوها بالصداقة المتينة بين الجزائر والصين، اللّتين تناضل كل منهما لتوطيد دعائم الحرّية وتحقيق العزة والكرامة لشعبيهما، في ظل المساواة والعدالة الاجتماعية.

وفتح الله فأجبت بكلمة كانت بنت وقتها، على تحية الرجل للجزائر المجاهدة في شخص أعضاء وفدها، وكانت هذه الكلمة العفوية من باب ردّ التحية بأحسن منها أو بمثلها.

ولعّل ممّا يحسن أن يلاحظ أن مضيفنا لا ينتمي لديننا ولكنّه لسمو أدبه وكرمه، أبى إلاّ أن يعبّر عن حسن تقديره واعتباره للجزائر بإقامة هذه المأدبة لأبنائها.

وفد الجمعية الإسلامية في وداع الوفـد:

في صبيحة اليوم الأخير من إقامتنا في بكين (الجمعة 1982/11/19م)، شرفنا بزيارته لنا في الفندق وفد عن هيئة الجمعية الإسلامية الصينية جاء ليودعنا قبل مغادرتنا في مساء نفس اليوم للصين.

وتلطف إخواننا المودعون فأتحفونا بهدايا تذكارية أفضلها وأجملها نسخ من المصحف الشريف؛ الذي أنجز طبعه -تحت إشراف الجمعية الأنفة الذكر- في سنة 1400هـ/1980م، واعتمادًا على المصحف المطبوع بالمطبعة المصرية، وفي سنة 1381هـ/1902م الموثقة من طرف لجنة من العلماء تحت إشراف مشيخة الأزهر.

ولا يسعنا إلى أن نزجي الثناء العاطر، والشكر الجزيل لهيئة الجمعية التي غمرتنا بلطفها وكرم ضيافتها، طوال المدة التي أقمناها بين ظهرانيها في الصين.

وكان مسك الختام لزيارتنا هي الدعوة الأخوية الكريمة، لتناول طعام الغداء على مائدة الأخ السيد عبد الكريم غريب سفير الجزائر في بكين، في آخر يوم من زيارتنا لبلاد الصين بعد أن كنا قد استقبلنا من طرف سيادته غداة يوم وصولنا.

خاتمــة:

وأود أن أنهي هذه الانطباعات الخاطفة بالإشارة إلى بعض الظواهر الاجتماعية لأنّها ذات دلالة فريدة في حياة المجتمع الصيني، وتلك هي:

- **أولاً:** ما يلاحظ على المواطنين الصينيين -ذكورًا وإناثًا- من حسن الأدب والسلوك والانضباط، فلا هرج ولا مرج، ولا ازدحام ولا خصام بين النّاس في أي مكان، بل الكل مقبلون على شؤونهم مهتمون

بأعمالهم، والمرأة في هذا مثل الرجل حتّى في الأعمال الشّاقة فلا وقت عندها للزينة أو للتبرّج.

- **ثانيًا:** أنّه لا وجود البتّة لأي مقهى عمومي في المدن قاطبة، فلا وجود عندهم للوقت الذي يضيّعونه في الجلوس على المقاهي لأنّ الوقت عندهم نفيس وهو قوام الحياة، ومن أضاع وقته فقد أضاع حياته.
- **ثالثًا:** أنّه لا تكاد ترى أيّة سيارة شخصية يملكها أي إنسان، إنّما توجد الشاحنات الضخمة لحمل البضائع والحافلات العمومية المتوفرة للنّاس جميعًا.
- **ورابعة الظواهر:** هي أن الأمن ضارب أطنابه في طول البلاد وعرضها فلا يوجد هناك اختلاس، ولا سرقة لأموال أو أملاك الناس، وقلما يرى الشرطي في الشارع إلاّ في مراكز إعطاء الإشارات الضوئية للسيارات عند الحاجة، ويا ما أكثر الظواهر الإنسانية الحضارية العريقة في تاريخ هذا العالم الشرقي الخالد[1].

(1) العصر، 1 جمادى الأولى 1403 هـ/14 فبراير 1983م، ص 12-14.

التعريف بالأستاذ محمد الصالح رمضان:

في صحبة الإمام ابن باديس:

ولد محمد الصالح رمضان في بلدة القنطرة يوم 24 أكتوبر 1914م، انتقل في عام 1934م إلى مدينة قسنطينة للاستزادة في التحصيل العلمي، فجالس مجلس الشيخ عبد الحميد بن باديس، ولا يغيب عن دروسه خلال ثلاث سنوات وكان يقيّد كلماته ويدوّن شروحه.

وقد تحولت كراريسه فيما بعد إلى الآثار الباقية من دروس ابن باديس في العقيدة التي ضاعت، ولم يبقى منها إلا ما دوّنه الطالب محمد الصالح، ثم نشرها بعد الاستقلال لينتفع بها طلاب العلم.

قال الشيخ عن صحبته للشيخ ابن باديس وحضور مجالسه: "لازمته ستة سنوات كاملة، لا أكاد أفارقه إلا في بعض أسفاره أو في العطل والراحات، فاصطبغت بفكرته والتزمتها في حياتي"[1].

وقد تفطن الشيخ ابن باديس لنبوغ تلميذه وجديته، فقربه إليه ثم كلفه بمساعدته في التدريس، وعينه مندوبا لمجلة "الشهاب" التي كان يصدرها وكلفه بالترويج لها والتعريف بها.

(1) مجموعة من المؤلفين. محمد الصالح رمضان في نظر زمرة من أصدقائه ومعارفه والدارسين لأعماله والباحثين في إنتاجه. منشورات ثالة، الجزائر،2004م، ص19.

في الكشافة الإسلامية:

انخرط محمد الصالح في صفوف الكشافة الإسلامية، وأسس فوج الرجاء في مدينة قسنطينة. وقد خلّده الشيخ ابن باديس في قصيدته الشهيرة:

يا نشئ أنت رجاؤنا *** وبك الصباح قد اقترب
خذ للحياة سلاحها *** وخض الخطوب ولا تهب

وبالإضافة إلى إشرافه على الفوج باعتباره مرشده العام، كان أيضا مستشارا لفريق الجوالة عقبة. وكان النشاط يتضمن تنظيم رحلات إلى الطبيعة والتدريبات الرياضية والتسلية والترويح، وإقامة عروض مسرحية وغيرها من الأعمال التربوية والتكوينية. ولم يقتصر نشاطه على التدريب والتكوين الميداني إذ كتب مجموعة أناشيد وطنية ومسرحيات هادفة، سرعان ما عمتها قيادة الكشافة على كل الأفواج عبر الوطن.

وقد حرص الطالب رمضان على إحياء الذكرى التاسعة لوفاة ابن باديس في 16 أفريل 1949م باعتباره الرئيس الشرفي للفوج. وقد حضر فعاليات الحفل والده وإخوته وأعضاء جمعية التربية والتعليم والمعلمون والتلامذة وأولياؤهم وأعضاء الكشافة الإسلامية[1].

وشارك في عام 1955م في المهرجان الخامس للشباب والطلاب في فرصوفيا عاصمة بولونيا ممثلا للكشافة الإسلامية الجزائرية. وقد ساعده هذا النشاط والتدريب الميداني فيما بعد عندما التحق بالثورة الحريرية في الولاية الثانية ثم الولاية السادسة.

(1) محمد الصالح رمضان في نظر زمرة من أصدقائه، مصدر سابق، ص 22.

في رحاب التربية والتعليم:

عمل الشيخ رمضان معلما في مدرسة التربية والتعليم بداية من عام 1937م، إلى جانب نخبة من المعلمين أمثال: محمد بن العابد الجلالي، ومحمد الغسيري وعبد الحفيظ الجنان. وقد كان معلما ناجحا كما وصفه صديقه أحمد حماني فقال: "ومن مزايا الأخ محمد الصالح رمضان -وهذا ما أشهد به- أنه متقن في عمله بارع في أداء معلوماته، صارم في تربيته، مؤثر جداً في تكوين طلابه وطالباته محمد الصالح رمضان في نظر زمرة من أصدقائه»[1].

أوفدته جمعية العلماء في عام 1943م مع الشيخ نعيم النعيمي لفتح مدرسة حرة في غيليزان، فمكث فيها 3 سنوات مدرسا ومديرا للمدرسة. وفي سنة 1946م عينه رئيس الجمعية الشيخ محمد البشير الإبراهيمي مديرا لدار الحديث بتلمسان فبقي فيها 7 سنوات منقطعا للتدريس وتسيير شؤونها الإدارية. «وقد نهض الأستاذ محمد الصالح رمضان بهذه المدرسة نهضة علمية عظيمة، وأصبحت تمد ثانوية معهد عبد الحميد ابن باديس بأكفأ الطلبة، ومن هؤلاء الطلبة من يمم وجهه من بعد جامعات الشرق ورجع بالعالية وأكبر منها، وهم يعمرون اليوم الوظائف الكبرى للدولة الجزائرية»[2].

(1) أحمد حماني. محاضرات ومقالات الشيخ العلامة أحمد حماني. عالم المعرفة، الجزائر، 2013م، ج 4، ص 356.

(2) مصدر سابق، ص 361.

واختارته أيضا عضوا في لجنة التعليم العليا ثم مفتشا عاما في سنة 1953م مساعدا للشيخ إبراهيم مزهودي. وبقي الشيخ رمضان متشبعا بروح التربية ومحبا للتعليم، فاستمر بعد الاستقلال في هذا الميدان بعد أن عمل فترة قصيرة في وزارة الشؤون الدينية، ودرّس الأدب العربي في ثانوية حسيبة بت بوعلي بالقبة (الجزائر العاصمة) حتى نال تقاعده في عام 1979م.

مقالات ومؤلفات:

توفي الشيخ محمد الصالح رمضان يوم 27 أوت 2008م بعد عمر طويل عامر بالأعمال والإنجازات. لقد كان أول من بادر إلى نشر آثار أستاذه الشيخ عبد الحميد بن باديس، وكان ذلك غداة الاستقلال، فنشرها في 5 كتب وهي: العقائد الإسلامية (1963م)، تفسير ابن باديس (1964م)، من هدي النبوة (1966م)، رجال السلف ونساؤه (1966م)، القصص الهادف (1966م).

دخل مبكرا إلى عالم الصحافة، فكتب في جريدة "البصائر" لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي انخرط فيها وصار من أعمدتها الأدبية بما نشره من مسرحيات وقصص موجهة لتلاميذ وطلبة مدارس هذه الحركة الإصلاحية. وكتب أيضا في مجلة "الشهاب"، وكذلك في جريدة "الشعلة" التي كان يشرف عليها الأديب أحمد رضا حوحو.

ولم يتوقف الشيخ رمضان عن الكتابة سواء في فترة الاحتلال أو بعد الاستقلال، فالمجلات والصحف الجزائرية المختلفة تكنز مقالاته الكثيرة التي تناول فيها قضايا الاجتماع والأدب والتاريخ والأعلام. وبادرت

دار الحضارة إلى جمع بعض مقالاته وأصدرت بعد وفاته بعنوان: "شخصيات ثقافية جزائرية".

وقد تضمنت تراجم لثمانية أعلام، وهم: أحمد بوشمال، محمد الأمين العمودي، أحمد رضا حوحو، الطيب العقبي، محمد الميلي، محمد العيد آل خليفة، حمزة بوكوشة، وعلي مغربي. وما تزال مقالات أخرى كثيرة مبثوثة في الصحف والمجلات تنتظر من يجمعها ويحققها تحقيقا علميا مقرونا بفهارس دقيقة.

وفي مجال التأليف كتب الشيخ محمد الصالح رمضان مجموعة من المؤلفات في مجالات متنوعة. ففي المسرح ألف: "الخنساء"، و"الناشئة المهاجرة" و"المولد النبوي الشريف"، وفي القصة ألف: "مغامرات كليب"، وفي الشعر أقرض: "ألحان الفتوة"، وفي أدب الرحلة نشر: "سوانح وارتسامات عابر سبيل"، و"الذكرى الأدبية لزيارة الفرقة القومية المصرية". وفي اللغة ألف: "من فصيح العربية في العامية الجزائرية"، وفي التراجم نشر: "شهيد الكلمة رضا حوحو"، وفي الجغرافيا: "جغرافية الجزائر والعالم العربي"... إلخ.

واشترك مع عدد من الأساتذة والباحثين في تأليف كتاب جماعي: النصوص الأدبية للمعاهد الإسلامية (توفيق شاهين)، إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس (مع عبد القادر فضيل)، تحقيق ديوان الأمير عبد القادر (عبد القادر السائحي).

تظهر مراسلاته مع عدد من الباحثين في الجزائر وفي الخارج على تفاعله الايجابي مع كل من راسله في مسألة علمية، خاصة ما له صلة بالحركة الإصلاحية الجزائرية، يجيب عن أسئلة السائلين ولا يبخل بما

لديه من معلومات ووثائق. فهذا المؤرخ والكاتب المصري الأستاذ أنور الجندي يشكره على الأوراق التي أرسلها إليه؛ ليثري الطبعة الثانية لكتابه حول عبد العزيز الثعالبي[1]. وهذه الباحثة الروسية ماريا سوكولوفا من معهد الدراسات الشرقية بموسكو راسلته خمسة مرات مستفسرة عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وكان دائما يرسل إليها ما تحتاجه من المعلومات والوثائق[2].

كما ساهم بفعالية في النشاطات الثقافية والأدبية، وقدم محاضرات عديدة عبر القطر الجزائري، وشارك في ندوات ومؤتمرات دولية حول الفكر الإسلامي والتراث العربي.

وقد قامت مؤسسات ثقافية عديدة بتكريمه في حياته وبعد مماته تقديرا لجهوده في خدمة الدين والوطن والعلم، منها: المجلس الأعلى للغة العربية، والمجلس الإسلامي الأعلى، ومركز الأرشيف الوطني وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والجمعية الخلدونية (بسكرة).

(1) مصدر سابق، ص 107.

(2) نفسه، ص 108-117.

عائد من الصين

الشيخ محمد الصالح رمضان

كانت الرحلة في الفترة ما بين 21 محرم 1403هـ و5 صفر1403هـ الموافقة لـ: 1982/11/7م و1982/11/20م، بما فيها يومي الذهاب والإياب، هذا إلى باريس فقط التي أقمنا بها يومين آخرين ونصف يوم بعد الرحلة كما سيأتي.

وقد كان السفر مقررًا على طريق باريس يوم الخميس 1982/11/4م، ولكن باريس كانت مغطاة بضباب كثيف تلك الأيام حجب الرؤية عن الطائرات، فلا تستطيع النزول في المطار، فعدلنا عن باريس إلى فرانكفورت بألمانيا الغربية يوم الأحد 1982/11/7م، وبها أقمنا نحو8 ساعات بفندق المطار الشراتون.

أقلعنا في التاسعة ليلاً إلى بكين بالصين، عبر دلهي الجديدة، التي توقفنا بها ساعة لتتزوّد الطائرة بالوقود اللازم لها، ولم نبرح الطائرة لعدم السماح لنا بالخروج منها، قطعنا هذه المسافة في 16 ساعة كاملة بين فرانكفورت وبكين.

وفي الرجوع عدنا من بكين على باريس عبر كراتشي الباكستان، حيث توقفنا ساعة للتزوّد بالوقود، وسمح لنا بالنزول إلى المطار إذا شئنا، ولكنّنا آثرنا البقاء في الطائرة لأن الوقت ليلا ولجهلنا بلغة القوم هنالك، وقطعنا المسافة هذه المرة بين بكين وباريس في 10 ساعات بما فيها ساعة التوقف في كراتشي.

الاستقبال:

وفي الصين قوبلنا بترحاب عظيم حيثما حللنا وارتحلنا، من مسؤولي الدولة ومسؤولي الجمعية الإسلامية التي تتولى شؤون المسلمين الصينيين، كما قوبلنا من سفارتنا هنالك بكلّ تجلّة واحترام وأكرمونا

جميعًا غاية الإكرام، وعلى الخصوص الجمعية الإسلامية الصينية التي كنّا ضيوفها المحترمين المبجلين أيّام الزيارة كلّها، فهي التّي عيّنت لنا الإدلاء والمرافقين والمترجمين.

ووفرّت لنا جميع وسائل الرّاحة ونظمت برامج الزيارة إلى المعالم والآثار الثقافية والتاريخية، بما فيها: المساجد والمعابد، والقصور والمقابر الإمبراطورية، والمناطق السياحية، إلى المعامل والمصانع والمزارع والتعاونيات. وكانت عنايتها بنا -والحق يقال- كاملة ورائعة، ممّا يدّل على مدى حبّهم واشتياقهم إلينا وإلى كل مسلم يزورهم.

كما لا ننسى فضل الدليلين المرافقين لنا طوال أيّام الرحلة وهما السيدان: لقمان من بكين وهو خريج دار العلوم بمصر، وعبد المالك من القومية الويغورية المسلمة في منطقة الشمال الغربي للصين التي تتمتع بالحكم الذاتي.

الأوّل يحسن اللغة العربية تكلما وفهمًا وكتابة، والثاني يفهمها ويحبّها ويصعب عليه النطق بها، ويقول لنا مشيرًا إلى صدره وقلبه، هنا كلام كثير كثير، ولكن لا قدرة لي على النطق به، وكان يسألنا عن بعض الشخصيات الجزائرية التي اشتهرت في ثورة التحرير وفي الاستقلال ممّا يدل على اهتمامه وتتبّعه.

لقد رأينا الشعب الصيني العظيم دؤوبًا على العمل يبني ويشيد في صمت بلا جلبة ولا ضوضاء، وهو المعروف بالجد والنظام والانضباط، يعمل بكل ثقة وأمل، لا يكل ولا يمّل، وحبّه للعمل وإتقانه له يفوق كل اعتبار، والمرأة تشارك الرجل في كل شيء حتّى في الأعمال الكبيرة الشاقة، لا فرق بينها وبينه، فهو شعب جدير بالحبّ والتقدير والاحترام.

الصين وتاريخها وحضارتها:

لعّل من المفيد للقارئ الكريم إعطاء نظرة عن الصين، تمكنّه من أخذ صورة مجملة عنها، قبل الشروع في تفاصيل الرّحلة التي قمنا بها في جهات محدودة معيّنة، لتكون أساسًا لما سيذكر من آثار وأخبار، أو من فوائد ومعلومات، قد تبدو غريبة أو مبالغًا فيها.

ومهما كان التدقيق والتحقيق في تقديمها، فلا تعطي سوى أمثلة وعيّنات جزئية لكليات وحقائق كبرى في الصين. فالصين كلمة تثير في النّفس معاني كثيرة، وخيالات واسعة، من الحقائق الثابتة والأساطير العجيبة، فإلى القارئ الفاضل هذه المعلومات العامة.

نظرة عامة:

الصين بلد القوميات المتعدّدة والعقائد المختلفة، واللهجات الكثيرة تجمعها جميعًا حضارة واحدة هي: الحضارة الصينية العريقة، وتربية موحدة تمتاز بخصائص لا توجد في غيرها.

أرضها واسعة جدًّا إذ تبلغ مساحتها نحو (10.000.000 كلم)، فهي عبارة عن قارة من القارات، تقع في المنطقة المعتدلة الشمالية من الكرة الأرضية، بين حدود سيبيريا في الشمال الشرقي، وحدود المنطقة الاستوائية في الجنوب، وبين كوريا وبحر الصين في غربي المحيط الهادي شرقًا وحدود الشرق الأوسط في الهند وباكستان والأفغان غربًا.

تختلف تضاريسها من أعالي قمم الجبال الشامخة التي يبلغ ارتفاعها مئات الآلاف من الأمتار (أكثر من 7000م) فوق سطح البحر، إلى انخفاض مستوى بعض سهولها وبحيراتها عشرات الأمتار تحت سطح البحر، (منخفض التيربان يصل إلى 154م تحت سطح البحر).

وتبعًا لذلك فالطقس يختلف اختلافًا كبيرًا من الحر القاري المحرق (مثل: صحراء قوبي) إلى برد المناطق الجليدية القارص في أقصى الشمال الشرقي. وتنوع المناطق الطبيعية واختلاف الطقس من أسباب تنوع الإنتاج وإثرائه إذا أحسن استثمارهما.

ومن أنهار كثيرة عظمى غزيرة المياه وسهول واسعة خصبة غنية بمختلف أنواع منتوجها مع كثافة سكانها، إلى صحاري قاحلة جرداء لا يكاد يسكنها أحد، أو ينبت فيها شيء.

أمّا سكان الصين اليوم فيقدرون بربع سكان العالم، إذ يبلغ تعدادهم مليارًا من الأنفس، فالصين تمثل أعظم كتلة بشرية في الدنيا، وكل أربعة أطفال يولدون في العالم يكون رابعهم صيني.

بالإضافة إلى أنّ الصين الشعبية اليوم قوّة عالمية كبرى عضو في مجلس الأمن، وأخذت مكانها بين كبار المنتجين للنفط في العالم، وأنّ صناعتها في تطور مستمّر وتكنولوجيتها في تقدم دائم.

وتملك مصادر كثيرة غنية للطاقة المتنوعة ومعادن وافرة مختلفة، (هذه بعض الحقائق الثابتة التي تمتاز بها الصين الحديثة. قد تبدو غريبة عند البعض. والأغرب عندي أنّها مع ذلك كلّه تعتبر من الكتل في السياسة الدولية، وليس لها أطماع خارج نطاقها كما تفعل بعض الدول مع أنّه بوسعها ذلك، ولكنّها لا تفعل). وهي من مؤسسي دول عدم الانحياز في كولومبو والأكثر غرابة أن حكومة تايوان في فرموزة؛ التي لا يتعدى عدد سكانها كثيرًا سكان مدينة من مدن الصين كشنغهاي، ومساحتها ضعف مساحة العاصمة (بكين الكبرى وملحقاتها).

هذه الحكومة الصغيرة المفتعلة التي كوّنها الحلفاء، ضرارًا لجمهورية الصين الشعبية إلى عهد قريب، وتعهدت الولايات المتحدّة الأمريكية بحمايتها من الصين الحقيقية (كما تدعم أمريكا إسرائيل اليوم وتتعهد بحمايتها من الدول العربية).

واحتلت منصب العضو الدائم في مجلس الأمن للمنتظم الدولي باسم الصين الوطنية نحو ثلث قرن، بدلاً من الصين الشعبية ذات الوزن الكبير الخطير. فهذا أعجب العجب.

وهن تاريخها القديم وحضارتها العريقة يقول فريد وجدي[1] في دائرة المعارف القرن (20): «الصين بلاد شاسعة هي أقدم ممالك العالم، استقلت وحدها بمعظم آسيا الوسطى الشرقية، مساحتها (11.500.000 كلم مربع)، فهي أكبر من قارة أوروبا يجهل قراء العربية تاريخ الصين فلا يعرفون عنه إلاّ حوادث لا تغني شيئًا في جنب ما يجب الإلمام به من تاريخ هذه الأمة العظيمة، وقد عني بجمع تاريخها العالمان الفاضلان: أبو العز أتربى بك، وعبد العزيز أفندي أحمد، في رسالة قيمة اختصرا فيها تاريخ الصين نأخذ منها ما يهمنا».

(1) محمد فريد وجدي. كاتب مصري ولد في مدينة الإسكندرية في عام 1878م، وتوفى في القاهرة في سنة 1954م. له مجموعة من المؤلفات أبرزها: كنز العلوم واللغة، صفوة العرفان في تفسير القرآن، السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، والإسلام في عصر العلم، ودائرة معارف القرن الرابع عشر الهجري والعشرين الميلادي والتي تقع في عشرة مجلدات... إلخ.

يدّل التاريخ على أنّ الصين إذا لم تكن أقدم بلاد العالم، فهي ولا شك من أقدمها وأسبقها إلى المدنية والعمران، إلاّ أنّها بقيت مجهولة منزوية لا يسمع النّاس عنها شيئًا، حتّى جاء العرب وذهبوا إليها فكتبوا عنها كتابات كثيرة، كانت السبب في توجيه أنظار العالم إليها.

«ويدّل على ذلك أيضًا أن الغربيين لم يجدوا لا في كتب الرّومان، ولا في كتب اليونان، ولا عندهم، إلاّ أشياء تافهة عن هذه البلاد، فلبثوا لا يعرفون سوى وجودها في خرائط الجغرافيا، حتّى ترجمت الكتب التي دلّت على أن العرب كانوا يذهبون إليها بسفنهم بين سني (850هـ و877م) للمتاجرة، وتاريخ الصين قديم، قدم العالم».

وتقول الموسوعة العربية اللبنانية: «يبدأ التاريخ الصيني المكتوب بالملوك الحكماء (2800-2205) قبل الميلاد، وقد عرفوا بالعناية بالزراعة والملاحة والطب، وعاش كنفوشيوس في القرن الخامس ق.م ونشر حكمته التي ظلت حتّى اليوم طابع الحضارة الصينية، وملكت أسرة تشين (أوتسين)، (من 249 إلى 202 ق.م) وباسمها عرفت البلاد عن العرب باسم (صين)، وكان منها أول حاكم مطلق هو أول باني لسور الصين الكبير، تلتها أسرة (هان) وفي عهدها نظمت الكتابة، واخترعت الطباعة، ثمّ حكمت البلاد أسرة (منغولية) من 1280م إلى 1368م، وجاءت بعدها أسرة (منغ) حتّى سنة 1644م، وفي عهدها جعلت العاصمة بكين، وتلتها

أسرة (منشورية)، وقد أخرجت هذه الأسرة حكامًا عظامًا، ووصلت سيادتها إلى مناطق بعيدة»[1].

معرفة العرب للصين[2]:

نواصل الحديث عن الصين لإعطاء صورة عامة عنها، قبل الكلام عن الرحلة التي لا تتعدى أماكن محدودة معدودة منها.

قلنا لم تكن الصين مجهولة تمامًا للعرب -كما هي عند الأوروبيين- حتّى في العهد الجاهلي، وإن كان تاريخ هذه الحقبة ككل الحقب القديمة، لا يخلو من مبالغات وأساطير أحيانًا.

وهو أمر طبيعي في تلك العهود لقلّة الرّواة، وعدم تحقيق الروّايات، بسبب بعد الشقة، وما يلاقيه المسافر من مشقة.

ومعرفة العرب للصين في الجاهلية لا تقتصر على مجرّد علم النّاس بها، بل كانت تتضمن قيام علاقات على مستوى الدولة، فيذكر الإخباريون كما في رواية الطبري، أنّ أحد التبايعة من ملوك اليمن الحميريين، وهو (شمريرعش) خرج غازيًا في سنة ثلاثين ميلادية، حتى انتهى إلى أذربيجان فلقي الترك بها وهزمهم... ثمّ انكفأ راجعًا إلى اليمن، فأقام بها مدة.

وقدم عليه رسول ملك الهند بالهدايا والتحف، ووصف له بلاد الصين، وسعته، وخصبها، وكثرة طرقها، فآلى يمينًا ليغزونها، وسار تبع

(1) انتهت الحلقة الأولى، العصر، العدد 78، 24 ربيع الثاني 1403 هـ/7 فبراير 1983م، ص 13-14.

(2) العنوان من وضع المحقق.

(الملك اليمني) حتّى دخل الصين، فقتل مقاتلتها واكتسح ما وجد فيها، ويزعمون أنّه خلف في التبت اثني عشر ألف فارس من حمير، فهم أهل التبت، وهم اليوم -يعني في القرن الرابع الهجري- خلقهم وألوانهم خلق العرب وألوانها.

كما نجد في كتب الأدب قصة وفود العرب على كسرى وعلى رأسهم: النعمان بن المنذر ملك الحيرة (العربي)، فوجد عند الملك الساساني (الفارسي) وفودًا من الهند والصين، فذكروا بلادهم وملوكهم مفاخرين، وأيّد كسرى مقالاتهم، وشهد لأهل الصين بالبراعة في الفنون والصناعات الدقيقة.

وممّا تردّد في المصادر العربية من ذلك، قول المقرّي في كتابه "نفح الطيّب"[1] أنّ: «الحكمة نزلت من السماء على ثلاثة من أهل الأرض: أدمغة اليونان، وأيدي الصينيين، وألسنة العرب».

هذه الروايات تعني أنّ الصين لم تكن مجهولة لدى العرب، وخاصة بالنّسبة للدولة العربية الناشئة التي قامت في القرن السابع الميلادي بظهور الدعوة الإسلامية.

(1) هو أحمد بن محمد المقري. عالم وأديب ورحالة جزائري. ولد بتلمسان في سنة 1584، وتوفيّ بالقاهرة في عام 1631. تنقل بين الجزائر والمغرب والمشرق العربي ودرّس في أشهر مدارسها وجوامعها. له عدة مؤلفات منها: أزهار الرياض في أخبار عياض، روض الأسى العاطر الأنفاس في ذكر من لقيته من ألام مراكش وفاس، عرف النشق في أخبار دمشق، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. ونشر هذا الكتاب مرات عديدة وقد حققه الدكتور إحسان عباس وصدر في 8 مجلدات.

الصين والمسلمون العرب:

ومن الحقائق الثابتة في التاريخ أن يزدجرد آخر ملوك الدولة الساسانية بعد أن منيت جيوشه بالهزيمة في معركة القادسية، ثمّ في معركة نهاوند الحاسمة عام 22 للهجرة (643م)، قد التجأ إلى ما وراء النهر، ثمّ إلى ملك الصين الذي عجب لسقوط الإمبراطورية الفارسية على أيدي جماعات مجهولة له من سكان الصحراء، حتّى أنّه بعث كتابًا إلى يزدجرد يقول فيه: «أذكر لي صفة هؤلاء القوم الذين أخرجوكم من بلادكم، فإنّي أراك تذكر قلّة منهم، وكثرة منكم».

ثمّ يرّد ملك الصين معتذرًا عن تقديم معونة عسكرية له بقوله: «إنّما يمنعني أن أبعث لك بجيش أوله بمرو (عاصمة الفرس) وآخره بالصين الجهالة بما يحق لك عليّ، ولكن هؤلاء القوم (يعني العرب) الذين وصف لي رسولك صفتهم ولو حاولوا الجبال لهدوها».

ومن المؤكد أن هزيمة الفرس أمام المسلمين قد وجدت صدى عميقًا لها في الصين.

ومن الثابت أيضًا في التاريخ وهذا ما يذكره المسلمون الصينيون اليوم باعتزاز أن الخليفة عثمان رضي الله عنه أرسل في عام ثلاثين للهجرة (651م) مبعوثًا (أو وفدًا) في صحبة السفير الصيني الذي أوفده ملكه إلى المدينة المنوّرة، للتوسط بشأن الأمير الساساني فيروز بن يزدجرد، وفي الوقت نفسه ليسير بعينه حقيقة هذه الدولة العربية الناشئة.

ويذكر أن ملك الصين أكرم وفادة هذا المبعوث (أو الوفد)، ويسمح له بإقامة مسجد في خانقو (أوكانتون) عرف باسم و(وان شن تزى) أي مسجد الذكرى، ويعني هذا أن الاتصال كان بطريق البحر.

وتبدأ المرحلة التاريخية في العلاقات الصينية الإسلامية، إبّان خلافة الوليد الأموي حول عام 96 للهجرة (715م) بغزو قتيبة بن مسلم لتركستان الصينية، وهي إحدى المقاطعات المتحدة مع جمهورية الصين الشعبية، ويدعونها المناطق ذات الحكم الذاتي.

وتذكر الرواية التاريخية: أنّ قتيبة بعث إلى إمبراطور الصين وفدًا برئاسة هبيرة بن مشمرج فعاد محملاً بالتحف والهدايا جانحًا إلى السلم، وإلى هذا الحدث يشير الشاعر بقوله:

لا عيب في الوفد الذين بعثتهم
للصين أن سلكوا طريق المنهج
كسروا الجفون على القذى خوف الرّدى
حاشا الكريم (هبيرة بن مشمرج)

وتذكر رواية صينية: أن سفيرًا مسلما بعثه هشام بن عبد الملك عام (726م) لتوثيق صلاته بالإمبراطور (هسون تسونغ).

وقد بلغت هذه البعثات والاتصالات ذروتها في خلافة المنصور العبّاسي الذي استنجد به الملك (سورتسونغ) في عام 139 للهجرة (756م)، للقضاء على ثورة داخلية ضده فبعث إليه بقوّة تتألف من عشرين ألف مقاتل، نجحت في مهمتها.

وبقيت هذه الآلاف من العرب المسلمين بالصين، ولم تعد إلى أوطانها، بعد أن توثقت صلاتها بأهل البلاد عن طريق المصاهرة.

وكان دخول خانات المغول من بيت جنكيز خان في الإسلام بعد استيلاء هذا الأخير على الصين سنة 612هـ (1215م)، من الأسباب التي

شجعت هجرة المسلمين من الأقاليم المجاورة إلى الصين واستيطانهم بها، وتولّى بعضهم مناصب إدارية هامة.

ذكر أرنولد[1] في كتابه: "الدعوة إلى الإسلام" أنّ حفيد السيد عمر شمس الذي اشتهر باسم السيد الأجل، حصل من الإمبراطور سنة 1235م على الاعتراف بأنّ الإسلام هو الدين الحق الخالص، وهو الاسم الذي ظل الإسلام يحمله في الصين إلى اليوم، وأذن الإمبراطور بأن تبنى المساجد في العاصمة ستيانفو ونانكين[2]. وهكذا استمرت الصلات وثيقة بين الصين والمسلمين بعد ذلك آمادًا طويلة[3].

مدينة شيان وجامعها العظيم "معلم إسلامي ضخـــم":

أول زيارة قمنا بها بعد النزول في بكين كانت زيارة مدينة شيان أوسيان الكبيرة، وهي تقع في أقصى الشمال الغربي لقارة الصين، المنطقة التي يكثر فيها المسلمون، وهي عاصمة شنشى حاليًا الذاتية الحكم، قطعنا المسافة إليها من بكين بالطائرة في ثلاث أو ربع ساعات لبعد الشقة ما بين شرق الصين وغربها.

---

(1) توماس أرنولد مستشرق بريطاني، ولد في 19 أفريل 1864م، وتوفي في 9 جوان 1930م. تخرج في جامعة كمبريدج، وانتقل إلى الهند للتدريس في جامعة عليكرة لمدة 10 سنوات. ثم عاد إلى لندن للتدريس في جامعتها العريقة. له مجموعة مؤلفات، منها: المعتزلة، الخلافة، وشارك في تحرير دائرة المعارف الإسلامية. ويعتبر كتابه "الدعوة إلى الإسلام" أهم أعماله وأشهرها. ترجم إلى عدة لغات، وقد عربه وعلق عليه حسن إبراهيم حسن وآخرون.

(2) راجع القاموس الإسلامي فيما يتعلق بالصين. (م ص ر).

(3) انتهت الحلقة الثانية، العصر، 1 جمادى الأولى 1403هـ، 14 فبراير 1983م، ص14.

أقمنا بالمدينة يومين ونصف يوم، زرنا خلالهما بعض المتاحف والمقابر الملكية الأثرية، كما زرنا مسجدها العظيم الذي يعد معلما من أهم معالم الإسلام في الصين وفي الشرق الأقصى كلّه، لقدمه وأهميته في المنطقة، ولاختلافه عن المساجد في التخطيط والهندسة، وفي اتساعه وتعدّد أفنيته وأقسامه، وما اشتمل عليه من برك وأبراج وطرق كما سنرى.

صلينا فيه العصر جماعة مع المصلين، وتذاكرنا فيه مع بعض أعضاء الجمعية الإسلامية المحلية، والإمام الحاج محمد يونس وموظفي المسجد، في إحدى قاعات الجامع.

حدثونا عن تاريخ الجامع وعن مكانته وما تعرّض له أخيرًا من غلق وإهمال في الثورة الثقافية وعهد عصابة الأربعة، ثمّ عن فتحه من نحو سنتين وإصلاحه وترميمه.

وهو الآن حرّ يؤمه المصلون من كل حدب وصوب، وخاصة أيّام الجمع والأعياد، أمّا جيرانه الأقربون فيؤدون فيه الصلوات الخمس كل يوم في أوقاتها. واسم الجامع (هواجيوي) أو(هواتشيويه) وهو يقع في وسط المدينة.

كان الإمام يرتدي الزّي الإسلامي الأبيض، وهو عندهم يتمثل في عمامة كبيرة بيضاء ذات عذبة، وفي الثوب الأبيض أو الجوخ، أمّا عامة المسلمون فيرتدون -مثل بقية الصينيين- البذلة الطويلة من قطعتين متماثلتين أو مختلفتين، وبعضهم يزيد قبعة صينية والغالبية حاسرو الرؤوس.

أمّا وقت الصلاة فيضعون على رؤوسهم طاقيات بيضاء كانت مخبأة في جيوبهم، مثل إخواننا الإباضيين في جنوب الجزائر تمامًا.

وقد لفت أنظارنا في المنطقة التي يقع فيها المسجد كثرة الكتابات العربية في الشوارع التي مرّرنا بها، وعلى المحلات التجارية، ممّا يدّل على مدى حبّ هؤلاء المسلمين للغة العربية التي تجهلها عامتهم، ولكنّهم يقدسونها لأنّها لغة القرآن والإسلام ولسان أهل الجنّة، لذلك فهم يتبركون بها ويحبونّها، فليعلم هذا بعض خصومها في الجزائر من أبنائها الألداء، وقد تجولنا في بعض أقسام الجامع الضخم.

الجامع القرية تاريخه ووصفــه:

يحتّل الجامع مساحة كبيرة تقدر بـ 12221 مترًا مربعًا، فهو عبارة عن قرية صغيرة بما اشتمل عليه من أجنحة وساحات وحجرات، وهو رمز لتاريخ المسلمين الصينيين في هذه المنطقة. ففي عام 707م، أرسلت الدولة العباسية الجنود لمساعدة الحكومة الصينية على تهدئة الاضطرابات والفتن الداخلية التي اتبعت الدولة والشعب، وانتصروا انتصارًا باهرًا، استتب بعده الأمن حلفه شؤون (هكذا).

وساد الإسلام، ونعمت البلاد بالهدوء والاستقرار، وقد طاب المقام لبعض الجنود هنالك فمكثوا مكرّمين، وعاد البعض إلى أوطانهم، ثم جاءت دفعة أخرى من مسلمي البلاد العربية وأواسط آسيا وبلاد الفرس واستقرت في الصين. وإلى اليوم نجد ملامح البعض منهم تشبه الملامح العربية الفارسية.

صفاء الروح:

يقول الأستاذ فنغ تسنغ المدرس بمعهد المعلمين في شنشى واصفًا الجامع القرية: «بني الجامع على شكل معبد كنفوشيوس، ويتألف من خمس باحات متصلة ببعضها أولاها مربعة الشكل فيها قوس مزخرف

علو (9 أمتار)، وثانيها تقع وراء بوابة عريضة تفصل بين الساحتين، يعلوها قوس تذكاري بسيط من حجر، وقوسان عاليان بنقوش دقيقة. وفي غربي هذه الساحة مسجد صغير مبني على الطراز العربي، لعلّه أقدم مسجد في الجامع.

وفي الساحة الثالثة برج يسمى "صفاء الروح" يرتفع عشرة أمتار فقط على شكل صيني (هو في الحقيقة مئذنة الجامع)، وعلى جانبيه حجرات: المكتبة، قاعة الاستقبال، الميضأة، الحمّامات، ومساكن الإمام والموظفين بالجامع. وأمام (البرج المئذنة) قوسان عاليان وسط الأشجار والأزهار الجميلة التي تتخلّلها ممّرات ضيقة معبدة.

وفي غرب هذه الساحة أبواب ضخمة منقوشة تؤدي إلى الساحة الرّابعة، على كل منها لوحة مكتوب عليها آيات بيّنات من القرآن بخط عربي جميل، وكلمات خاصّة بتعظيم الله، وتوضيح الدور الذي يقوم به الجامع.

ويتوسط هذه الساحة الرابعة برج خشبي جميل على الطراز الصيني، يبدو بأفاريزه المعطوفة إلى أعلى، كأنّه يرفرف بأجنحته ليطير إلى السماء، لذلك فهو يسمى عندهم "برج العنقاء".

وفي جنوب الساحة وشمالها قاعات رحبة، وفي غربها طريق على جانبيه بركتان يسبح فيهما السمك، بعدهما برجان مربعان، يؤدي الطريق إلى القصر الرئيسي الفخم، وسقف القصر مغطى بالأجر الزجاجي تتوسطه قبة من النّحاس مزخرفة برسوم الزهر، حولها أكثر من 400 لوحة مرسومة بالأزهار المختلفة تجلّلها الآيات القرآنية على شكل دائري، وجدرانه في الجنوب والشمال مغطاة باللّبن المطبوخ المنقوش.

أمّا الجدار الغربي (جدار المحراب) فمزيّن بنقوش ورسوم وآيات على الخشب مذهبة، والنوافذ الزجاجية مرسومة من الداخل بالزهور وصور مكة والكعبة على القماش، كأنّها معلقات جدارية أو سجاجيد عربية.

ورواق القصر عريض واسع مفروش باللّبن المربع، وعلى جانبي القصر بابان مستديران يؤديان إلى الساحة الخامسة التي بها ربوتان ترابيتان لاستطلاع المسلمين وترقبّهم لهلال رمضان وعيد الفطر. وبالجامع أيضًا كثير من النصب والتماثيل التذكارية».

فالجامع كما قلت آنفًا عبارة عن قرية صغيرة لما احتوى عليه من أقسام وطرق وساحات وأبراج وبرك، الخ. فهو ليس كالجوامع الصينية الأخرى ولا كمساجد البلاد العربية الإسلامية، ولكنّه جماع بين هذه وتلك وزيادة، لما امتاز به من تخطيط هائل وهندسة رائعة وزركشة بارعة، ففي كل ذلك تبلورّت إبداعات الفنانين والمهندسين الذين استمدوا من الحضارتين الصينية والعربية الإسلامية.

وقد أهدانا الإمام الفاضل مخططًا عامًا هامًّا لهذا الأثر العظيم، لكلّ واحد منّا، كهدية تذكارية. بارك الله فيه ورعاه، وسيبقى ذكرى طيبة لنا[1].

عــراقة الحضارة الصينية:

حضارة الصين من أقدم وأعرق الحضارات في العالم، فقد كشفت الحفريات والبحوث والتحرّيات عن آثار غنية ومعالم ثرية هي مخلفات ثقافات عريقة جدًّا هنالك، بالإضافة إلى أن تاريخها المدوّن يعود إلى ما يقارب أربعة آلاف سنة، وهذا نادر في تاريخ الشعوب الحضارية.

(1) انتهت الحلقة الثالثة، العصر 15 جمادى الأولى 1403هـ/28 فبراير 1983م، ص14.

أما الإنسان البدائي الذي كان يعيش في الصين في غابر العصور التي لم يدركها التاريخ، فتقول عنها المعلومات الأثرية المكتشفة حديثًا: أنّه كان موجودًا قبل مليون سنة.

لقد اكتشفت متحجرات لهذا الإنسان البدائي في عدة أماكن من الصين مثل: يوانمو بمقاطعة يونتان، ولانتيان بمقاطعة شنشى، وتشوكوديان بالقرب من بكين، كما جاء في نشرة "أحوال الصين" عدد ماي 1982م.

وتقول: إنّ إنسان لانتيان هو أقدم إنسان بدائي لحدّ الآن، وأنّ إنسان بكين كان يتصّف بالميزات الأساسية للكائن البشري، إذ كان يستطيع المشي معتدل القامة، وكان قد تمكن من صنع واستعمال الأدوات البسيطة (من الصخر والحطب وعظام وجلود الحيوان) في تلك العصور العريقة في القدم. كما اهتدى إلى استعمال النّار والسيطرة عليها.

وهذه الأشياء لا يمكن أن يقوم بها فرد مهما أوتي من القوّة والذكاء والحذق، فهذا الإنسان البدائي ليس بقرد كما يزعم داروين وتلاميذه الذين يقولون أن أصل الإنسان قرد ثمّ ترقي وتطوّر.

وفي أواخر عهد المجتمع العشائري لهذا الإنسان البدائي الصيني، كان ينتشر في حوض النهر الأصفر عدد غير قليل من القبائل، ومنها قبيلة قوّية متطوّرة الثقافة نسبيًا، كان يرأسها هوانغ دي الذي قيل عنه فيما بعد: أنّه سلف الأمة الصينية وجدها الأسطوري.

كانت ثقافتهم التي تعود إلى ما قبل خمسة آلاف سنة انعكاسًا لمرحلة الأمومة العشائرية، ومرحلة الأبوة العشائرية، والذين كانوا

يعيشون في المرحلة الأخيرة استطاعوا أن يطوّروا الأدوات الحجرية والخشنة المتعدّدة الأغراض، وابتكروا الأواني الفخارية.

وبالإضافة إلى الصّيد والقنص اللّذين برعوا فيهما، ظهرت الزراعة وتربية المواشي، كما ظهر الاستقطاب الطبقي.

فلا عجب إذن أن نسمع من بعد عن تطوّر هذا الإنسان بالنسبة لغيره، الذي يبدو تطوّره في نظم اجتماعية، وحكومات إقطاعية، وصراعات طبقية، ثمّ نزاعات فكرية بين مذاهب ومدارس فلسفته، في عهود متقدمة يرجع بعضها إلى أكبر من سبعة قرون قبل الميلاد، وبعضها إلى أربعة أو خمسة قرون.

والمدوّنات التاريخية تفيد أن عدد الممالك التي كانت تحت حكم الأمراء زادت عن (140 من عام 770 ق.م إلى عام 476 ق.م)، والانتقال من المجتمع العبودي إلى المجتمع الإقطاعي، والإهداء إلى صهر الحديد، وحرث الأرض وزراعتها، والنضال الذي خاضه العبيد ضد أسيادهم، وعامّة النّاس ضد الحكام الظلام، والنزاع الإيديولوجي بين المدارس الفكرية المختلفة: الكنفوشيوسية، والموهمة والظاوية، والشرائعية، فقد كانت تعكس التغيّرات الاجتماعية الحادة، وتنبئ عن نضج فكري متقدم للإنسان الصيني.

وفي عام 221 ق.م، أسّس تشين شي هوانغ (أوّل إمبراطور من أسرة تشين) أوّل دولة مركزية موّحدة متعدّدة القوميات في تاريخ الصين. وكان قد دعّم ركائز ملكية الإقطاع للأرض، وطوّر المواصلات، ووحّد اللغة المكتوبة، كما وّحد النّقد والعملة والمقاييس في حساب الطول والحجم والوزن.

وفي الوقت نفسه تحسنّت أساليب الزراعة بإنشاء كثير من مشاريع الرّي الكبيرة الحجم نسبيًا وتطوّرت أعمال صهر الحديد، ونسج الحرير، وغيرهما من الحرف وازدهرت التجارة، وظهر عدد كبير من المدن الهّامة.

وكان اختراع الورق مساهمة عظيمة قدّمها الشعب الصيني للحضارة العالمية، فقد استخدم لحاء الشجر وألياف القنب وقطع القماش المهملة باعتبارها مواد خام، وتمكن من تحسين فن صناعة الورق (الكاعظ). وفي عهود ما بعد الميلاد اخترع الصينيون البارود، وبدأوا استعماله في الحروب في أواخر عهد أسرة تانغ.

والطباعة أحد الاختراعات العظيمة هي الأخرى التي قام بها الصينيون، فقد ظهرت الطباعة بالألواح الخشبية المحفورة، قبل أن تظهر في أي مكان آخر من العالم، ثمّ تطوّرت بعد أن اخترع بي شنغ طريقة الطبع بالحروف المطبعية المتحرّكة، ففي الموسوعة العربية الميسرة: «اخترعت حروف الطباعة في الصين، وتقدمت صناعة الحروف المنفصلة في كوريا قبل أوربا».

وهكذا أحرزت منجزات عظيمة في ميادين العلوم والثقافة في عهد أسرتي هان وتانغ، وتقدمت الزراعة والحرف اليدوية، فقد زرع القطن ونمت صناعة غزله ونسجه، وازدهرت التجارة الداخلية والخارجية في عهد أسرتي سونغ وايوان (907-1368م).

واشتهرت الصين وتوافد إليها التجار والمسافرون الأجانب، وتجوّل ماركو بولو[1] الرّحالة الشهير في أرجاء الصين الواسعة، ووصف في مؤلفه "رحلات ماركو بولو" ثروة الصين بالتفصيل، وقوّتها العظيمة، وصناعتها الرّائجة، وتجارتها المزدهرة.

وجاء ابن بطوطة[2] الرّحالة العربي المغربي الكبير موفدًا من ملك الهند إلى صديقه إمبراطور الصين، فسجل حياة الصين وظروفها الاجتماعية في كتابه المدعو "تحفة النظار في عجائب الأسفار"[3] المعروف برحلة ابن بطوطة، فقد وصل في رحلته إلى بكين التي كانت تسمى: "خان

(1) ماركو بولو. رحالة ايطالي. ولد بمدينة البندقة في سنة 1254 وتوفي فيها في عام 1324. زار الصين مع والده وعمه في عام 1271 واستقبلهم الإمبراطور كوبيلاي خان. وساح ماركو بولو في هذه البلاد مدة 16 سنة. وفي عودته إلى مسقط رأسه في سنة 1295 ألف "كتاب عجائب العالم"، وصف فيه الصين المغولية. وقد ترجم هذه الرحلة إلى اللغة العربية عبد العزيز جاويد ونشرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب في سنة 1977م.

(2) ابن بطوطة. رحالة وجغرافي. ولد طنجة بالمغرب في سنة 1304. وتوفي في مسقط رأسه في عام 1377. قام بثلاث رحلات عبر قارة آسيا واكتشف خلالها عوالم مختلفة سجلها في كتابه: "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار". وقد اعتنى بتحقيقه وطبعه المؤرخ المغربي الدكتور عبد الهادي التازي. وطبع الكتاب مرات عديدة في طبعات مختلفة في المغرب والمشرق.

(3) عن رحلة ابن بطوطة إلى بلاد الصين، أنظر: محمود الشرقاوي. ابن بطوطة في بلاد الصين. الهلال، جوان 1966م، ص 154-169.

بالق أو خانقو"، وانتهى إلى آخر أعمال الصين وذكر تعامل الصينيين بالورق عوضًا عن النقود، وبراعتهم في التصوير وغير ذلك ممّا امتازوا به.

وبدأت الصّلات الوّدية بين الصين والبلدان الأجنبية -بعد أن كانت الصين منغلقة على نفسها منذ ما يقرب من ألفي سنة مضت-، عندما أرسلت أسرة هان[1] رسولها تشانغ تشيان إلى المناطق الغربية فاتحة بذلك الطريق إلى أواسط آسيا وبلاد الفرس.

وعبر هذا الطريق كان ينقل الحرير الصيني وغيره من المنتجات الصينية إلى غربي وجنوب غربي آسيا وأوروبا، وعرف هذا الطريق في التاريخ باسم "طريق الحرير"، وتطوّرت بفضله العلاقات الاقتصادية والثقافية وتوّطدت بين الشرق والغـرب.

واستمرت هذه الصلات وثيقة محكمة بين الصين وأجزاء العالم الأخرى، ولم تنقطع إلاَّ بعد أن وصلت قوى الاستعمار الغربي إلى الشرق الأوسط وسيطرت على أهم مراكزه وموارده.

وفي النضال المتواصل المناهض للحكم المحلي الجائر والعدوان الأجنبي الطاغي تبلوّرت الصداقة والأخوة بين مختلف القوميات الصينية وتمكنّت.

وبرز عدد كبير من الأبطال الوطنيين والقادة الثوريين في تاريخ الصين، وفي أواسط القرن 19 خاض الشعب بمختلف فئاته وقومياته نضالاً مريرًا ضد الامبريالية والإقطاعية، ومن ذلك الحين بدأت صفحة جديدة في تاريخ الصين الحديث.

---

(1) أسرة هان أو يوان أسسها الإمبراطور كوبيلاي خان، وهو حفيد جنكيز خان. ولد حوالي 1214، وحكم الصين بين 1259-1294.

وختامًا لهذه اللمحات التاريخية لحضارة الصين ومدنيتها ننهي هذا الفصل بكلمة جامعة لفريد وجدي في دائرة معارف القرن 20 قال رحمه الله: «الصين مملكة واسعة مترامية الأطراف مسورة من جهاتها الأربع بالحبال والبحر، ثمّ هي مزدحمة بالسكان ازدحام الصحاري بالرمل سيما في الجزء الجنوبي حيث تموج بالمدن العامرة والغابات الوافرة والجبال الشامخة والأنهار الواسعة».

إنّ غرو أفاضت على أهلها من القديم اللّبن والعسل، ولا غرو أن جعلتهم أقدم أمم العالم في الوجود وأعلاهم كعبًا في الحضارة والمدنية. بلغت الصين في القديم من المدنية ما لم تبلغه مملكة ونالت أمتّها من اتساع السلطة ما لم تنله أمة.

فبينما كانت الشعوب الأخرى لا تزال تضرب في عرض الأرض وتتخبّط في دياجير الجهل كالأنعام أو أضل كان الصينيون قد تألفوا أمّة عظيمة غذاؤها العلم وحياتها العمل وقائدها الجد والاجتهاد. تدل على ذلك آثار أي آثار ما برحت إلى الآن شاهدة ناطقة معتبرة من الحاجات الضرورية لبني الإنسان[1].

باريس والمسجد الجامع بها:

وفي عودتنا من الصين عرّجنا على باريس التي توصف بعاصمة النور والمدنية حيث أقمنا بها يومين اطلعنا خلالهما على أحوال المغتربين الجزائريين والجاليات الإسلامية عمومًا.

(1) انتهت الحلقة الرابعة، العصر، 6 جمادى الثانية 1403 هـ/ 21 مارس 1983، ص12.

وزرنا المسجد الجامع بها الذي كان أوّل مركز إشعاع إسلامي في الغرب المسيحي، منذ أكثر من نصف قرن، ولكنّه بعد الحرب العالمية الثانية، وحرب التحرير الجزائرية، اعتراه شيء من الفتور والإهمال، في الوقت الذي تعددت المراكز الثقافية الإسلامية بأوروبا ونشطت ورقد هو ونام.

وبتقادم الزمن وعدم الصيانة صار الجامع بحاجة ماسة أكيدة إلى إصلاح ما بلي من فرشه وأثاثه، وإصلاح ما تصدع من سقفه.

فهرس الموضوعات

مقدمة 5
البعثات الطلابية الصينية إلى مصر..... 6
علماء الصين في الجزائر..... 9
رحلات جزائرية سابقة إلى بلاد الصين 10
جريدة "العصر" تنشر الرحلة..... 11
تجارب في أدب الرحلة 13
مشاهد وانطباعات الشيخ علي مرحوم..... 14
مشاهد وانطباعات الشيخ محمد الصالح رمضان..... 16
مسارات الرحلة 17
الخلاصة..... 18
التعريف بالشيخ علي مرحوم 20
مسار في سطور..... 20
في مجال التربية والتعليم 20
نشاطه الصحفي 21
في قلب الثورة..... 22
نشاطه بعد الاستقلال 23
وفاته وآثاره..... 23
انطباعات عن الإسلام والمسلمين في الصين الشعبية..... 25
التعريف بالأستاذ محمد الصالح رمضان..... 53
في صحبة الإمام ابن باديس..... 53
في الكشافة الإسلامية..... 54
في رحاب التربية والتعليم 55
مقالات ومؤلفات 56
عائد من الصين 59
فهرس الموضوعات..... 83

الكتاب:

لم تكن الصين بعيدة عن اهتمامات رجال الفكر والإصلاح في العالم العربي، ولم يتوقف اهتمامهم عند الكتابة عن تاريخها وحاضرها، فقد قام عدد منهم برحلات إلى هذه البلاد البعيدة، والتقوا بأهلها خاصة المسلمين منهم، وساحوا في طبيعتها الخلابة وزاروا مصانعها، وعادوا معجبين أو غير معجبين بما شاهدته أعينهم، وسمعته أذانهم، واستخلصته بصائرهم. وكان منهم العالمان الجزائريان: الشيخ محمد الصالح رمضان والشيخ علي مرحوم. وبالإضافة إلى دراسة تلك الرحلة وما تضمنته من مشاهد وآراء، حرصت في هذا الكتاب على التنبيه إلى أهمية الحضارة الصينية، والدعوة إلى معرفة تراثها وتاريخها، واكتشاف عقليتها بخاصة أن الصين صارت دولة عظمى، حاضرة بقوة في كل أنحاء العالم برجالها، وكذلك بمنتجاتها التي أصبحت تغزو الأسواق، وتساهم رويدا رويدا في تغيير الذّهنيات والأذواق.

الكاتب:

د.مولود عويمر

حاصل على شهادة دكتوراه الدولة في التاريخ المعاصر من جامعة باريس عام 1998. شارك في عدة ملتقيات وطنية ودولية حول قضايا الفكر المعاصر. يعمل حاليا أستاذاً للتعليم العالي بجامعة الجزائر2.

صدرت له 17 كتابا، منها: «أعلام وقضايا في التاريخ الإسلامي المعاصر»، «مالك بن نبي رجل الحضارة»، «الإسلام والغرب بين رواسب التاريخ وتحديات المستقبل»، «عبد الحميد بن باديس مسار وأفكار»، «مقاربات في الاستشراق والاستغراب»، «التواصل الفكري بين النخبة الإصلاحية في المغرب الكبير»، «العلاقات الثقافية بين الجزائر والمشرق العربي في القرن العشرين»، «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.. مسارات وبصمات»، «الثورة الجزائرية في الدراسات المعاصرة»، «تراث الحركة الإصلاحية الجزائرية»، «المفكر مالك بن نبي في الكتابات المعاصرة»، «الفكر الإصلاحي المعاصر وقضايا التنوير».

شركة الأصالة للنشر / الجزائر

58 حي المندرين، المحمدية، الجزائر 16000

الهاتف: 44-47-00-69-06 / الفاكس: 06-96-21-021

www.assala-dz.net

assala.edition@assala-dz.net / assala@assala-dz.net

ISBN:978-9931-413-47-9